

يصدر عن مؤسسة اخبار اليوم

أنيس منصور

بلاد الله .. خلق الله

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة
محمود أمين العالم

رئيس التحرير
حسين فهمي

مدير التحرير
مصطفى طيبة

سكرتير التحرير
جلال عارف

مطابع الأخبار

أنيس منصور

بلاد الله خلق الله



إلى أي مكان ..

فى نهـاية الليلة ٤٢٥ من ألف ليلة وليلة تتحدث شهر زاد الى الملك شهريار عن رجل شيال اسمه السندباد الشيال . وأنه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملابسه وينتقل الى أى مكان .. وانتقل من بيته الى بيت آخر لايبعد كثيرا عنه .. ووضـع الشيلة التى يحملهـا على كتفه فوق مصطبة .. ثم جلس . واحس أن نسيما عليـلا وشذى جميـلا يخرج من فتحة الباب .. فاتجه الى الباب بأنفه وشعر بالسعادة .. وأدرك شهر زاد الصباح !

وشهر زاد لم تكمل القصة لانها ـ كعادتها ـ تريد أن يظل شهريار ملهوفا على القصة الجديدة .. وبذلك يطيل عمرها ليلة بعد ليلة ..

ولو كنت من شهريار لاكتفيت بهذا القدر .. فهذا الرجل سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة المتواضعة بعض النسيم والعطر .. وهذا يكفى مكافاة على انه انتقـل من مكان الى مكان .. أو فكر فى ان يترك الارض التى ضاق بها .. او البيت الذى مل الاقامة فيه .. اننى أرى أن هــذه الليلة التى لم تكملهـا شهر زاد قد كلمت .. فالرجـل انتقـل . وجلس وشم الهـواء والرائحـة .. وهذا يكفى !

وفى كل مرة ينتقل سندباد من مكان الى مكان يلقى المكافأة السخية على ذلك .. مهما كانت مخيفة أو متعبة فهى لذيذة .. ويبدو أن سندباد لم يكن يتعذب كثيرا ، كأنه يعلم انه ممثل

فى قصــة ‥ أو بطل مسرحيــة ‥ فكل مايعمله هو تمثيل فى تميثل ‥ وهو من المؤكد محروم من الشــعور الحقيقى بكل ماهو جديد ‥ محروم من الخوف الحقيقى ‥ والعـذاب الحى ‥ وهو يرى أن كل جديد بلاء ‥ وان كل مغامرة كارثة ‥ وعلى الرغــم من أنه ((يمثل)) فى ألف ليلة وليلة ، فانه يريد أن يفرغ منها . تماما كما لو كان مغامرا حقيقيـــا تعذب كثيرا وينشد الراحة بعد ذلك !

انني لا أحسد سندباد ‥

فهو لم يستمتع بالتجربة الاولى ‥ والمفــاجاة الاولى ‥

والفزع الذى لاقرار له ‥ والحيرة التى لاحدودلها ‥ ولا أحسده أيضـــا ‥ فقد تمنيت أن يطول كل شيء ‥ فلا شيء يخيف ‥ ولم يكن يعذبنى فى رحلاتى الـكثيرة الا التعب ‥ الذى يجعلنى عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجاة ‥ ولو كانت لى قوة ســندباد وعضــلاته وشهيته المفتوحة الى الطعام وقدرته الفـذة على أن ينــام فى أى مكان وفى أى وقت لشربت مياه المحيط ‥ لكى اعبره بعد ذلك ماشيا على قدمى ‥ ولنقلت الجبال وردمت بها الوديان لكى أتمشى على مهلى من دولة الى دولة ‥

انه لم يتعذب ‥ ولم يســعد بالراحة بعد العذاب ‥ انه لم يعش ، وانما كان يمثل دورا فى الحياة !

ولم يعجبنى من كل مذكرات ((ماركو بولو)) التى أملاها فى سجنه فى مدينة جنوة فى نهاية القرن الثالث عشر الا هـــذه العبارة ‥ ((وعنـــدما عاد أبى وعمى من الصين . كانت امى قد ماتت . وكنت وحــــدى فى البيت وقد بلغت العشرين . وسألنى أبى : هل تجيء معنا ‥ وكنت انتظر هذا السؤال ‥



وقد أعددت له اجابة مركزة : نعم ـ واشار أبى وعمى الى ان استعد . وكنت قد أعـــددت كل شيء . وفى اليـوم التالى اتجهت الى الصـــين . ولم استطع ان اصارح أبى بأنى قد نسيت معظم ملابسى .. من شدة الفرحة .. فارتديت ملابس والدى وعمى .. وكنت قد ارتديت ملابســـهما قبل ذلك بسنوات : فقـــد كنت أحلم بما يحلمـــان به وأروى لنفسى مغامراتهما : لقد عشت حياتهما دون أن يعرفا ذلك .. فلم تبق الا ملابسهما أيضا .. وارتديتها .. »

وأنت لن تعرف بســـهولة تلك الجمـــلة التى أعجبتنى وأضحكتنى وهزتنى والتصقت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة : فالذى أعجبنى من كل صفحات ماركو بولو .. أنه نسى ملابسه .. ولم يحمل معه شيئا منها ..

فهذا بالضبط ما أفعله بحكم العادة ..

ولا أنسى يوم سافرت لاول مرة الى ايطاليا .. ووقفت فى المطار أتحدث الى موظفى الجمرك وكان بعضـــهم من تلامذتى فى الجامعة .. وطال الكلام وطال .. وسألنى واحد منهم :

وأين حقائبك ؟

قلت : لمـــاذا ؟

قال : لكى نبعث بها الى الطائرة ؟

قلت : هذه ؟

وصرخ الرجل : معقول هذا ؟!

قلت : فقط هذه الحقيبة ..

وقد ظل الرجـــل يحدثنى طويلا ظنا منه أن حقائبى لم تحضر بعد .. ولم تكن غير حقيبـــة واحـــدة بها قميص

وبنطلون وماكينة حلاقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب .. لكى أبقى شهرا فى ايطاليا !

ومرة أخرى لكى أؤكد لاصدقائى الذين أحسوا اننى سوف أسافر بعيدا ، حملت حقيبتى الصغيرة معى .. وسألونى : اذن أنت مسافر الى الاسكندرية .

قلت : نعم ..

قالوا : هذا واضح ..

وهم يقصدون ان الحقيبة صغيرة . وان الملابس التى بها قليلة .. ولم أكن مسافرا الى الاسكندرية وانما كنت مسافرا الى الهند ومنها الى استراليا .. الى اليابان وأمريكا .. وأكثر من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فأنا أضيق بأن يعرف أحد موعد سفرى فيضطر الى أن يرهق نفسه بتوديعى .. كما اننى أضيق بالوداع .. وأضيق بالاستقبال أيضا . . ولا أرى لذلك مبررا .. ولا أعرف ما الذى يقال أو ما الذى أقوله ذهابا وايابا ..

أو كأننى لا أصدق اننى سوف اسافر .. فاذا لم أتمكن من السفر ، فلا احد قد عرف ذلك .. مع أنه لم يحدث مرة واحدة ان اعتزمت السفر ولم أسافر .. ولكنه خوف قديم ثابت ليس له مايبرره غير أن له تاريخا فى طفولتى .. ولم أفلح فى التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد .. ولا أظننى قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيبتى فى مطار فرنكفورت ..

ولا أعرف كيف ضاعت .. واعتقد اننى نسيتها فى الطائرة .. فقد كانت حقيبة يد صغيرة .. وكان لابد أن أتخلف ليلة



فى المانيا قبل سفرى الى السـويد .. وفى هذه الحقيبة كل ملابسى الضرورية .. وهى قليلة جدا .

وذهبت الى مكتب شركة الطـيران . ووعدنى الموظفون بالعثور على الشـنطة فى أسرع وقت . وارسلوا برقيـات وانتظروا ..

وسألوا عن احتياجاتى الضرورية .. وعن محتويات الشنطة بالضبط . وقلت ــ وأنا كاذب مع الاسف ــ : بيجاما صوف وملابس داخليـة .. ومنـاديل وجوارب وفوط وصابون وامواس حلاقة وعطور ومعجون اسنان ..

وبسرعة فوجئت بكل هـذه الاشياء فى غرفتى فى الفندق ومعها باقة ورد واعتـذار رقيق من شركة الطيران وتجديد للوعد بالعثور على شنطتى الضائعة ..

وشعرت بالخجل مرة أخرى لاننى تصـورت ما الذى سوف يحدث عنـدما يجدون شنطتى الصغيرة وليس بها سـوى بيجاما واحـدة .. وقطعة واحدة من كل شىء وتمنيت الا يعثروا عليها ابدا ..

وسافرت وعدت .. وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشنطة الملعونة فى انتظارى .. وأنا عنـدما كذبت كنت اتستر على فضيحة أخرى هى ان ملابسى قليلة لاتذكر ! ..

هكذا .. انا اذا سافرت لا أحتاج الى أى وقت .. ولا لاى استعداد نفسى .. فى اية لحظة اسـتطيع أن أزرر الجاكيتـة

وأقفل باب المكتب وانطلق الى المطار .. أما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج .. أو يمكن غسلها فى الفندق ..

وكل شيء بعد ذلك يهون . فالمهم ـ دائما ـ هو السفر . . هو الخروج . .

وليس السفر تغييــــيرا لمكان المشى أو النوم أو الاكل . . وانما هو تغيير للموقف .. تغيير للسمع .. جـلاء للبصر .. تجديد للرؤية . .

وعندما سافرت الى اوروبا لاول مرة لم يتسع وقتى لكى اخبر احدا من الناس . . فقد علمت بالسفر في الصباح . . وفي المساء كنت في المطار .. في الجو . . فوق البحر الابيض المتوسط . . ومن الطائرة رأيت مدينة الاسكندرية لاول مرة .. فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل . .

وعندما سافرت الى الكونغو قيل لى فى التليفون : تسافر ؟

قلت : طبعا .

ـ ودون أن تعرف الى أين ؟

ـ لايهم ..

ـ اذن الى الكونغو ..

ـ حالا . .

ـ اتجه الى المطار . .

واتجهت الى المطار وفى يدى صحيفة ((الاخبـــــار)) وقد لففت بها قميصا وجوربا ومنديلا وكتابا . . !

وليس يحدث هذا فقط اذا ما سـافرت الى الخارج وانمـا اذا سافرت الى الاسكندرية . . كل ما أذكره هو هذه السرعة فى السفر . . فى الانطلاق . . الضيق الوحيد الذى أشعر به هو



ملابسي التى لايمكن أن تفارقني ... ثم هذه السيارة أو الطائرة التي ليست لها سرعة الضوء في الانتقال من شاطيء النيل الى شاطيء البحر !

وفي احدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة .. ولما سألني موظف الاستعلامات عن الشنط .. أدركت انني نسيت الشنطة في القاهرة .. أو نسيت ان أعدها .. فقلت له : حالا ..

ونزلت الى الشارع وبحثت عن شنطة ووضعت فيهاملابس اشتريتها وعدت الى الفندق ..

ولم أكد أنهي دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لي أمامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيه .. !

وعرف موظف الاستعلامات انني اشتريت الشنطة وما بها .. ومنذ لحظات . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقي وراء هذا التصرف .. ولكن المعنى الحقيقي هو انني اذا قررت السفر فمعنى ذلك أن تسافر نفسي .. روحي .. عقلي .. أما هذه الاشياء الاخرى فتجيء في الدرجة الثانية وفي معظم الاحيان لاتجيء !

وأجمل وأصدق وصف لي هو ما قاله الأب الفيلسوف تايلار دى شاردان الذى كان أستاذا للعلوم في القاهرة في كتابه الذي سجل به رحلاته الى بلاد الصين : انني أولد في هذه الرحلات .. انني أنظر وأنظر في جشع وشراسة .. هذا هو طعامي .. ثم انني اذا شربت وارتويت وسكرت فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات .. ولكن من الضياء التي تتدفق في أعماقي » .

ويقول الاب دى شاردان : انها هذه النفس الغامضة . . انها ((أنا)) . . هذه ((الانا)) المغامرة . . الباحثة . . الانا التى تريد أن تذهب الى أبعد مكان فى الدنيا . . الى أطراف كل شىء . . وكل انسان . . وكل فكرة . . انها هذه الانا التى تريد أن ترى أبعد . . وتسمع أعمق . . اننى أريد أن أعرف بصراحة وبايجاز ما الذى يكمن فى اعماق هذا الاناء الانسانى)) . .

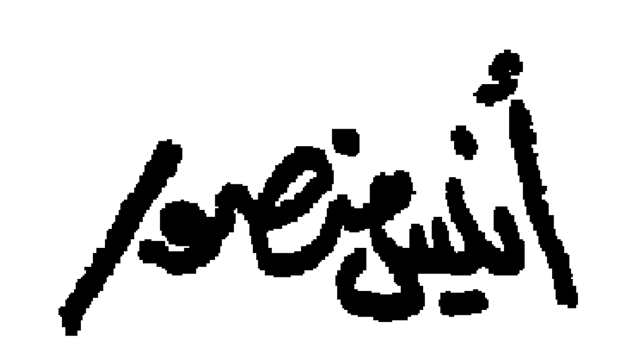
ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : ان الارض كروية !

فهى تدور ونحن ندور . .

لاهى تهرب من تحت أقدامنا . . ولا نحن نهرب من فوقها . . وحتىعندما ننطلق بعيدا عنها فسنظلمشدودين اليها . . وعلى موعد معها . . لكى نسافر من جديد . . نسافر فى البر أو فى البحر أو فى الهواء . . بلا حقائب . . فالحقائب لاتهم . . فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا أهم من الحقائب . . نحمل الشوق الذى لايخمد الى كل ماهو جديد : فى الارض وفى الناس . . وفيما بين الناس . . فى كل ارض . . وبين أى ناس . . فالارض لله . . والناس أيضا . . ولا فرق بين الناس هنا والناس فى أى مكان . . فكل الناس ينشدون راحة البال ويطلبون من الله أن يعطيهم المعدة ليهضموا الطعام . . ويعطيهم الطعام لتهضمه المعدة . . ويعطيهم الحرية ليفعلوا بما لديهم ما يريدون . . وأن يعطى الجميع سلاما فى النفس وفى الحب وسلاما بين النفوس والعقول . .

فكل أرض لله . . وكل ناس مخلوقات الله . .

وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله !





كانت أقصر وأطول رحلة ..

وكانت أشدها حرارة ..

وعمقا .. أيضا ! .

الكونغو .. بلا لومومبا



.. وقفزت إلى السرير !



بأحد الناس فى مطار القاهرة ·· وتلهفت على الاعتذار له فاصطدمت بواحد آخر ·· وعندما صدمنى شخص ثالث وجدت أن الفرض الذى يريح الانسان هو أن يقول لنفسه ان كل الناس بهائم ··

ولم يكن هذا الفرض ظالما فمطار القاهرة مظلم والناس أشباح ·· ونصف هذه الاشباح جنود ·· ونصف الكلام باللغة الانجليزية ذات الخنافة المعروفة ·· ولكن ليس هذا وقت ضبط الأنوف أو الألسنة وما أعرف كم من هذه الكلمات التى أسمعها : انجليزى وكم أمريكانى ··

فالمهم هو أن أجد لى مكانا فى الطائرة التى هناك·· والتى لا أراها بوضوح ولا أعرف أحدا من ركابها ·· ولا أعرف ان كانت على استعداد لأن تقبل مسافرا مثلى ·· أو شحنة بشرية متجهة الى الكونغو ··

وحاولت أن أتجه الى مصدر الضوء فى المطار ·· وحاولت أن أختار شخصا أصطدم به لعلى أرغمه على أن يقبل اعتذارى ·· ومع هذا الاعتذار أسأله : الى أين نحن مسافرون ؟ وفى أية طائرة ··
وفجأة أضىء جانب من المطار ··

وظهرت الطائرات ضخمة ·· لونها أسمر ·· كأنها اشتعلت فى السماء ·· وأنقذت فى آخر لحظة ·· أو كأنها عندما احترقت سقطت عليها الامطار بمعجزة ·· ولذلك تحتفظ هذه الطائرات بلون السحاب ولون الدخان ·· وعلامات بيضاء هى امضاء البرق على هذه اللوحة القاتمة .. ولاحظت أيضا أن كل الذين التفوا حول هذه الطائرة من الجنود المصريين الشبان المسافرين الى الكونغو ·· وهم جنود المظلات ·· ولاحظت أيضا أن هناك سيارات اتجهت الى هذه الطائرة ·· ثم الى داخل الطائرة ·· وكانت هذه أول مرة

اشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود والقنابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولابد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين ..

فالمدنيون ـ مثلى ـ لا تقوى أجسادهم التى اعتادت على المقاعد الجلدية والقطنية ، أن يتمددوا على الحديد .. والا أن يتراجعوا بمقاعدهم الى الوراء ويناموا فى هدوء .. أو يصطنعوا النوم .. حتى تجىء المضيفة وتقول لهم : اصبحوا على خير .. واذا كنتم فى حاجة الى أى شىء فلا تترددوا ! ..

ومن المألوف أن يتردد الانسان فى طلب معظم الاشياء .. لأن من حق المضيفة أن تنام هى الاخرى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وفى هذا الظلام لمست يدى يد أخرى .. واستسلمت يدى والتفت بسرعة حول الذراع الناعمة واتجهت أنا الى صاحبة الذراع وقلت : أين طائرتى يامدموازيل !

فقالت المضيفة الانجليزية : أنت مطلوب فى الاستعلامات ..

قلت : أنا بالذات ..

قالت : نعم ..

ولم أناقش طويلا ونحن واقفان فى الظلام .. انما اختصرت الطريق وادخرت الكلام لكى أراها فى النور أوضح وعلى مهل ..

وفى النور قابلنى أحد رجال الجيش وسألنى ان كنت أحد الصحفيين المسافرين الى الكونغو .. وسألنى عن بقية الزملاء ... وبسرعة ظهر الزملاء .. وبسرعة سألنى أيضا : أين الحكمدار ..

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة « حكمدار » وأرى أن الموقف يقتضى أن أكون هذا الحكمدار . ووجدت الاجماع قد اختارنى حكمدارا . وكلمة حكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذى يتلقى الأوامر ويبلغها الى زملائه ويتولى تنفيذها . وعلى الرغم من أن عددنا اربعة . فاننا من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار . وانتهزت فرصة تعيينى حكمدارا واعتذرت . وغضب الضابط لهذه الفوضى ورفض أن يبلغنا الاوامر التى لديه ..

ولم نعرف حتى الآن ما هذه الاوامر .. ومستحيل أن نعرفها ما دمت قد رفضت هذه الوظيفة ..

وفى آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضـابط وقال له : انه فى استطاعته أن يكون حكمدارا · وفرح الضابط لهذا الضبط والربط ·· وجاءت التعليمات صريحة تقول : **ان أحـدا ليس مسـئولا عن سفرنا الى الكونغو ·· وأنه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون !**

وكان هذا القرار مثل ستين قلة قنـاوى قد انكسرت وراءنا قبل أن تتحرك الطائرة ·· أو بعبارة أخرى : فى ستين داهية ·· وألف نهار أبيض أن البلد قد تخلصت منا جميعا !!

وابتلعت هذه الامنية الغاليـة ونظرت الى الطـائرة وهى تقذف اللهب ·· وتعلقت عينى بالمواد المتفجرة التى امتلأت بها الطائرة · ووجدت أن هذه الطائرة هى « الداهيـة » التى سوف نذهب بهـا ونذهب اليها ·· وانه من الممكن أن يكون النهار أبيض ألف مرة فى لحظات اذا ما انفجرت هذه الطائرة فى المطار واستراحت البلاد منا·

وفى هذه اللحظة لم أكن أتصور أننى عبء على البلد لهذه الدرجة ·· ولم أكن أتصور أن الخلاص منى يحتاج الى ثورة فى الكونغو ·· والى ارسال قوة من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية الى الكونغو والى طائرة ضخمة تسـافر فى ساعة متأخرة من الليل ·· ولكن يظهر أن الانسان يعيش ويموت دون أن يعرف قيمته الحقيقية عند غيره من الناس !

ونظرت الى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت قيمتى الحقيقية · وعرفت هذا القبر الطائر ·· هذا الجحيم المنطلق ··
وبسرعة تخلصت من أهميتى وقيمتى التى احتفظت بهمـا منـذ تركت مكتبى فى « أخبار اليوم » حتى جئت الى المطار ·· وأحسست بشىء من الخفة ·· وشىء من الحرية ·· فالمطـار أصبح بالنسبة لى منطقة انعدام الوزن والقيمة والاهمية ·· وفى الظلام وبين الجنود وبين الاشباح اتجهت الى احدى الطائرات ·· ووجدت الجنود قد حجزوا أماكنهم ·· ملابسهم صفراء ·· شبان سمر ·· على وجوههم الارهاق ·· وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه ·· وبروح شابة حلوة اتجهت العيون ناحيتى فيهـا اشفاق وفيهـا زمالة ·· وأفسح بعضهم مكانا على أرض الطائرة ·· نعم على أرض الطائرة ·· فالطائرة لها أرض ·· بل كل جدرانها أرض ·· انها عارية تماما · جلد على عضم ·· لا توجد بها قطعـة خشب واحدة ·· انهـا طائرة بلا موبيليا ·· انها تذكرنا بأول طائرة ركبتها فى حياتى سنة ١٩٤٩ عندما سافرت الى أوربا فقد كانت مثل اللوريات ينقلون فيها الحيوانات

من شرق أفريقيا الى غربها .. وكنا نجلس على أرضها .. ونمسك في حبل يمتد من مقدمتها الى ذيلها .. وعندما كانت تهتز .. نهتز أيضا كما يهتز حبل الغسيل فوق السطوح ٠٠ ويتساقط منا العرق أيضا . وعندما حاول بعضنا أن يعترض على هذه الطائرة قيل لنا ما معناه : على قدر فلوسكم !

وعندما حاول بعضنا في ذلك الوقت أن يكون ظريفا مع قائد الطائرة قائلا له : اسمع يا أسطى .. هذا الاتوبيس نمرة كام ..

كان رد الكابتن : الاتوبيس ليست له نمرة ، ولكن الركاب لهم نمر على قفاهم !

أما هذه الطائرة الحربية فهى مختلفة تماما ٠٠ فلا توجد بها حبال ٠٠ ولا أخشاب ولا أحد يعرف لها أسطى ٠٠ ولا كمسارى ٠٠ ولا رقم ٠٠ ولا اتجاه ٠٠

ولكن أحد الضباط أشار الى أن أركب السيارة الجيب الموجودة في داخل الطائرة ٠ ففى هذه السيارة مقعد من الجلد ٠٠ تصور !

مقعد من الجلد في داخل سيارة فى داخل طائرة ٠ انه يشبه كرسيا نزع من صالون حلاقة ووضع على الرصيف .. فهو الكرسى الوحيد ٠٠ وهو مطمع كل الجنود الذين تهالكوا على جدران الطائرة ٠

و باحساسى بأن هذا المقعد نعمة من عند الله ٠٠ اتجهت اليه بشيء من الامتنان ٠٠ وهذا الامتنان جعل الصدمة التى هزت رأسى بعنف وأنا أدخل السيارة ، نوعا من اللمس الرقيق ٠ أوكانت هذه الصدمة بسبب الحسد ٠٠ ثم حمدت الله عليها ٠٠ فهى أهون بكثير جدا من الامنيات الرسمية التى تلقيتها فى المطار .. فالمطلوب أن أروح على مسئوليتى ، وألا أجيء على مسئوليتى ٠٠ وأن أموت على مسئوليتى ٠ فأنا القاتل والقتيل ٠٠ وأنا كالنار يأكل بعضى بعضى !

ولمست بسرعة باب السيارة ٠٠ أنه حديد جليد ٠٠ ولمست الدريكسيون انه شديد البرودة ٠٠ وكذلك كل أجهزة السيارة ٠٠ ثلج فى ثلج ٠٠

أما ملابسى فهى نصف ملابسى ٠٠ جاكتة من تحتها قميص ٠٠ وتحت القميص شبه قميص ٠٠ والقميص مفتوح فأنا أضيق بالكرافتة ٠٠ وأضيق بالحزام ٠٠ وأضيق برباط الجزمة وجلدة الساعة ٠٠ ولو كان الامر بيدى لنزعت الزراير ٠٠ وتحولت ملابسى كملابس

الاحرام .. ولكن فى تلك اللحظة تمنيت أن أجد مع الجنـود ابرة وفتلة لأسد كل هذه الفتحات .. فقد لاحظت أن هواء باردا يهب من تحت المقعد .. وتلمست بنطلونى فوجدته سـليما .. ولسبب لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول جسمى .. ويتجه باحكام شديد الى أنفى .. وعطست .. وهـذا طبيعى .. فأنا يكفينى جدا أن ألمس شيئا باردا لأصاب بالزكام .. فأنا مزكوم دائما ولكنى أبحث عن فرصـة .. وجاءت الفرصـة الحديدية .. وعطست .. وانزكمت .. وانسد أنفى .. وانسدت منافذالطائرة .. وأقفل أحد الاشـباح بطن الطـائرة .. ودارت المحركات .. واستسلم كل الحاضرين .. فلا شىء يملكه الانسان فى طائرة الا أن ينظر الى السقف ..

ونظرنا الى السقف وتفادينا النظر بعضنا الى بعض .. فليس هناك ما تراه فى وجوه الآخرين انها صورة لا نحبهامن القلق والخوف وشىء من الذل .. ومقاومة خفيفة يمكن أن تسميها : الامل أوالتوكل على الله .. مع شىء تافه اسمه : الثقة بالنفس ..

وبسبب هذا الافلاس المعنوى لا ينظر أحد الى أحد .. ونرى فى السقف متسعا للجميع ..

ولا أعرف ان كانت محركات الطائرة التى لم أرها قوية جبارة.. أو أن محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يدوى لعدم وجود أية طبقة عازلة من الخشب أو من الزجاج أو الفبر .. ان صوت الطائرة رهيب .. انها تأكل نفسها .. انها تزمجر .. انها تريد أن تتحـرر من شىء .. من جاذبيـة الارض .. من الليل .. من الظـلام .. ان المحركات نفسها تريد أن تنفلت من الطائرة .. ليتها تفعل ذلك .. فرغبتى فى اكمال الرحلة التى لم تبدأ قد ضعفت .. وأية محاولة منى للخروج من الطائرة الآن مستحيلة .. ولا يوجد أى عذر .. فلا أستطيع أن أتظاهر بأننى نسيت شنطتى أو جواز سفرى .. أو أن شخصية هامة كانت تنتظرنى ونسيت أن أودعها .. كل هـذه الاعذار والاوهام قد تجمدت فى رأسى بسبب البرد .. وكلهـا قد طحنتها المحركات وتحولت الى تراب تطـاير والتصق هو أيضـا بالسقف ..

وتحركت الطائرة كما يتحرك لورى فى طريق زراعى غيرمرصوف .. يبدأ من القاهرة وينتهى فى الكونغو فى قلب أفريقيا ..

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف الى أين أنا ذهب .. ولا

كم طول المسافة ٠٠ ولا كم ساعة نقطعها ٠٠ ولا ما هو أول مطار٠٠ ولا كم يوما سنبقى هناك ٠٠ لا شيء ٠٠ لا معلومات ٠٠ لا فلوس٠٠ لا ملابس ٠٠ وكل ماعندى من معلومات هو هذا الحوار القصير الذى أعتز به وأردده كلحن جميل .. أما هذا الكنز المعنوى فهو :

ــ هل تسافر الى الكونغو ؟

ــ نعم !

ــ الآن ٠٠

ــ فورا ٠!

ــ أنا كنت متأكدا من ذلك !

ــ شكرا !

انتهى الحوار ٠٠ ولكنــه لم ينته فى أذنى ٠٠ انه يتردد مدويا كالاجماع فى جلسة برلمانية .. لا أقابله الا بالســــعادة لهذه الثقة الغالية ٠٠

ولكن هذه الثقة الغالية مثل بلوفر أضعه على قلبى٠٠ تحت جلدى ٠٠ آه لو كان يلتف حول جنبى من ناحية اليمين ٠٠ ناحية المصران الغليظ ..

.. فقد اكتشفت فى هذه اللحظة أن فى الجانب الايمن من بطنى يوجد كتكوت ينقر ٠٠ كأنه فى بيضة ٠٠ ومن الغريب أن الكتاكيت لاتخرج من البيض الا فى الدفء .. ولكن هذا الكتكوت لايخرج الا عندما يكون هناك برد شديد كالذى أقرفص فيه الآن ٠٠

وارتفعت الطائرة . . وانخفضت زمجرة المحركات قليلا .. ولكن الطائرة ضخمة .. راسية فى الجو .. لا تهتز .. هكذا قلت لنفسى مطمئنا .. ومهدئا ..

وكلما ارتفعت فى الجو . . ارتفعت درجة الحرارة .. وارتفعت كأننا كنا تحت خط الاستواء ٠٠ ثم اقتربنا ٠٠ وكأن خط الاستواء فوق فى السماء

٠٠ ثم تحولت الحرارة الشديدة الى هواء ساخن ٠٠ هواء من نار .. لقد تحول خط الاستواء الى خط نار .. ولاحظت أن الجنود الذين حولى .. بدأوا يفكون زراير قمصانهم .. وشعرت بالارتياح .. فان هــذا الهواء الساخن قد انقذنى من زمهرير السيارة ..

ولكن رأسي اصطدم بالسيارة عندما خطرت لى فكرة أن هذه الحرارة من الممكن أن تؤدى الى انفجار الديناميت والبارود والقنابل التى امتلأت بها الصناديق التي أمامي وورائي .. ثم ابتلعت ريقي وسكت . وكأن راسي عندما اصطدم فى السيارة قد سحق هذه الفكرة السخيفة التى أفزعتنى ..

ولاحظت أن الطائرة تهتز .. وانها تهبط .. أو هكذا توهمت .. والتفت حولى لاتأكد من شعورى .. ووجدت الوجوه كلها تؤكد ان الذي أحسست به صحيح .. فالطائرة اتجهت الى الهبوط .. مع أننا لم نترك مطار القاهرة الا مدة عشر دقائق ..

وقيل فى المطار أن أجهزة التكييف فى الطائرة قد فسدت . ولابد من اصلاحها ..

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا أن هناك حرصا من جانب أحد من الناس على أن نعيش أو على أن يعيش هو .. فقائد الطائرة الذى لم أره لايريد أن يموت لا هو ولا غيره .. ومن أجل ذلك عاد الى الارض ليصلح الجهاز الذى اختل ثم يستأنف رحلته الى أواسط أفريقيا ..

وارتفعت الطائرة .. وكلما ارتفعت ازدادت درجة الحرارة انخفاضا .. شيء عجيب .. كأن خط الاستواء المرسوم فوق مصر قد تحول سرا الى منطقة قطبية جليدية .. وبدات انطوى على نفسى .. أو على الاصح التوى على نفسى .. واضع يدى على بطنى .. وعلى جنبى الايمن .. وأتفادى أن يصطدم رأسى بدريكسيون السيارة التى اتخذت وضعا مخالفا للطائرة .. فالطائرة تتجه بمقدمتها الى الجنوب .. الى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها الى الشمال الى القاهرة .. فأنا أركب سيارة لاتتحرك ومع ذلك تطير بسرعة ٥٠٠ كيلو فى الساعة .. وفى درجة حرارة قريبة من الصفر ! .

وكانت سعادتي لاحد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز والدوران .. وهبطت الطائرة الى ارض المطار .. مرة أخرى . لكى يتم اصلاح أجهزة التكييف .. وهبطت الطائرة .. وهبطت أنا فى مقعدى .. وهبط قلبى فى قدمى .. وأصبحت حياتى شيئا عند قدمى لايساوى أن أحرص عليه .. فقد وجدت الى جوارى شبانا مواطنين شجعانا ذاهبين الى أرض مجهولة .. يدافعون عن قضية الحرية .. وقضية الشعوب التى لايعرفونها والتى لم يروها ولم

يعرفوا لغتها .. واحسست أن مشاعرى هذه نوع من الترف .. وان سلامتى نوع من التعالى .. وان مخاوفى طفـــولية .. ولم ابرح مكانى ..

وبعد نصف ساعة استغرقتها فى معاتبة نفسي وعقابها ، قامت الطائرة .. وقد تغير كل شيء فيها .. صـــوتها .. هواؤها .. جوها .. طعمها .. فقــد اكتشفت فجأة أن فى فمى لبانة . وان هذه اللبانة قد التصقت فى جدار فمى .. كأنها هي أيضا خائفة .. ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتى .. وتغـير طعم الدنيـا على لسانى .. والآن أخذ يتغير لونها أيضا .. فالآن أرى بوضوح كل هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء . وقد تجاوروا ومالوابعضهم على بعض .. وناموا .. أسلحتهـــم فى ايديهـــم .. وذخـــيرتهم تحت أقدامهم ..

وخرجت من سيارتى ، كما يفعل رواد الفضاء ..

واقتربت من أحد الجنود وسألته ان كانت معه كوتشينة فقال وكأننى أنقذته من بحر من الملل العميق : معى .. تلعب كونكان ؛

وبسرعة رددته الى حالة الملل : لا أعرف غير لعبة الكومى !

ورجعت الى مكانى من السيارة .. لا أنا أريد أن أعرض عليه أن يعلمنى الكونكان .. ولا هو يريد أن يلعب الكومى .. ولا حتى فى الامكان أن نشترك جميعا فى لعبة الشايب .. !

ونظرت الى ناحية أخرى .. كما تنظر ســمكة الى سنارة مع فارق واحد اننى أبحث عن الذى ينقذنى أيضا من ماء له رائحة كريهة .. ووجدت شابا على وجهه ابتسامة مرحبة .. وخرجت من السيارة وتساندت عليها وعلى جدار الطائرة وقلت له : يبدو انك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت الى مكانى فقد كان نائما وهو مفتوح العين ..!

اذن فالطائرة سجن حقيقى .. المسافات كلها قريبة .. لاضوء .. لا حركة .. لا حرية .. لا كلام .. مع كل هذا العدد من الناس شعرت بوحدة فظيعـة .. ومع كل هــذه المواد الملتهبة أشـــعر ببرودة فظيعة .. ومع كل هذا الارتفاع اشعر كأن الطائرة تزحف تحت الارض .. والليــل طويل .. ويبدوانهليل دائم .. فالطائرة بلا نوافذ .. أو على الاصح لم أجد لها نافذة .. وحتى اذا وجدتها فلا معنى لها ..

وأغلب الظن اننى نمت . .

وفتحت عينى على ضوء قريب الشبه من ضوء النهار .. أو هو ضوء النهار .. وسمعت عبارات قريبة جدا من : صباح الخير .. صباح النور . .

طلع النهار .. والشمس بدأت اشعتها تصبغ الطائرة بلون النار وقالوا اننا أمضينا فى الجو ثلاث ساعات .. وقالوا خمس ساعات .. فلا معنى للزمن .. ولا معنى لما نقول .. فنحن شحنة فى لورى جوى .. والسائق هو وحده الذى يعرف مصير هذه الشحنة .. وأن كنا نحتفظ ببعض المعلومات الاولية .. ومن بين هذه المعلومات اننا فى الطريق الى الكونغو احدى المستعمرات البلجيكية والتى تبلغ مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة .. والتى عدد سكانها ١٣ مليونا .. والكونغو فى حجم الهند التى يبلغ عدد سكانها ٥٥٠ مليونا .. ولذلك يمكن أن يقال ان الكونغو « دولة » خالية من الناس .. ولذلك سوف تكون مفاجأة كبرى أن نجد أحدا فى أى مكان .. فالرجل الانجليزى الذى اكتشف الكونغو فى سنة ١٨٧٥ اندهش جدا عندما صادف فى غابة شاسعة اربعة أشخاص . فقد أعلن أنه قابل مظاهرة من المواطنين !

والكونغو هى أكبر « عزبة » عرفها الانسان . .

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا . ومساحة العزبة حوالى مليون ميل أى نصف مساحة القمر .. ومن الغريب أن الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكيا .. والذى يملك الكونغو أيضا ليس بلجيكيا .. فالذى اكتشفها صحفى بريطانى اسمه جورتون ستانلى . . وملك بلجيكا ألمانى لم ير هذه البلاد .. ولم يفكر فى أن يزورها .. وانما كان مشغولا بامتصاص اموالها . وكان هذا الملك نموذجا لدناءة الانسان ووحشية الرجل الابيض .. فقد ارتكبت فى الكونغو مذابح ليس لها نظير فى التاريخ .. فقد كان من حق الرجل الابيض أن يقطع ذراع وساق أى رجل من الكونغو لاى سبب .. وكثيرا ماكدس الرجل الابيض عددا كبير من اطراف المواطنين للارهاب .. وظل هذا الارهاب الوحشى زمنا طويلا لايدرى به أحد .. ولكن عندما بلغت القارة الاوروبية والعالم المتحضر أنباء الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمى .. ولم يكن هذا الفزع معناه : الدعوة الى تحرير افريقيا من الاستعمار .. وانما كان معناه فقط أن يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن أن يبقوا فى مكانهم . .

فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة .. وفرنسا تملك أرضا فى حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك أرضا فى حجم بريطانيا ٣٠ مرة .. والبرتغال تملك أرضا فى حجم البرتغال ٢٠ مرة .. فالمطلوب هو أن يغسل البيض أيديهم من دماء السود فقط ..

ولكن ان تظل اقدامهم فى كل مكان .. يستنزفون دماء القارة السوداء التى تتفجر بالنور والنار ايضا ، فأفريقيا تنتج ٩٨٪ من الماس العالمى و ٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و ٦٠ ٪ من الكاكاو و ٦٠٪ من زيت النخيل .. وعدد سكان افريقيا حوالى ٢٥٠ مليون نسمة وبها ٧٠٠ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و ٢٢ مليون مسيحى والبقية من الوثنيين .. وكانت افريقيا المركز الوحيد لتجارة الرقيق التى ابتدأت فى سنة ١٥٢٠ تعبر المحيط الى امريكا ..

والغيت دوليا فى سنة ١٨٠٠ .. ولذلك فحوالى ٢٤٪ من الشعب الامريكى من الزنوج .. والزنوج قد اختلطوا بالبيض فى امريكا اللاتينية ..

وقد أرغم الملك ليوبولد على أن ينزل عن عزبة المليون ميل الى الشعب البلجيكى فى سنة ١٩٠٨ ومات الملك بعد ذلك بعام واحد .. اما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وما تزال الطائرة معلقة فى الهواء .. ومن الطبيعى ان نبقى كذلك فلا علاقة بين رغبتى فى أن أصل الى الكونغو وبين الطائرة .. فهى فى الطريق الى المكان الذى لا أعرفه .. وأنا أحاول أن أتسلى بشىء .. ولم أجد ما أتسلى به .. لا أحد أتحدث اليه .. ولا كتاب ولا ورق .. ولا قلم .. ولا خريطة .. ولا رغبة فى أن أفكر فى أى شىء .. فأفكارى أكثر انكماشا من جسمى .. وعقلى مشغول بمصرانى الاعور الذى تحول الى وخز ابرة .. ثم وخز مسمار بارد .. ثم مسمار محترق .. ونظرت الى أحذية الجنود الضخمة .. ووجدت أن هذا الحذاء هو أعظم مخبأ للاصابع والقدمين من البرودة الموجعة .. أما حذائى فأقرب الى شبشب الحمام .. وأما جواربى فهى أقرب الى الجوانتيات .. وأما انا فأقرب الى الحفاة العراة .. ولابد اننى ساكون أكثر الجميع خفة عندما نصل الى الكونغو الحارة .. ولكن متى نصل ..

وكأن الطائرة استمعت الى مايدور فى رأسى .. فاتجهت الى الأرض .. تحاول الهبوط .. وهبطت على أرض الخرطوم .. وفى ساعة مبكرة دافئة ..

وفى مطار الخرطوم كانت الوجوه مستريحة مرحبة .. انهم ناموا وقاموا وشربوا الشاى الذى أحلم به . . وكانت سيقانهم ممدودة طول الليل .. واذرعهم مسترخية .. واشعلوا اعواد الكبريت بلا خوف .. واطفأوها تحت اقدامهم بلاخوف .. وأعدوا لنا هذه الابتسامة السخية اللامعة .. وهذه الابتسامة هى ثمرة للنوم والراحة والماء البارد والافطار وعدة أكواب من الشاى والسجائر والمشاركة العاطفية والوطنية لثورة الشعب فى الكونغو ضد الاستعمار البلجيكى .. ضد الاستعمار .. وكأنهم يكلفوننا فى أول لحظة التقينا بهم فى مطار الخرطوم أن نحمل تحياتهم الى لومومبا الذى يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبى وغيره من العملاء .. وأنصار لومومبا فى بلاده قليلون ولكنهم فى العالم كله ألوف الملايين ..

ولا ازعم اننى تلقيت هذه المهمة بارتياح .. فقد كنت مهموما بساقى وبطنى .. ومتطلعا الى الدخان الذى يخرج من كوب شاى .. ولكن عندما دخلت الى المطار وجدت عشرات الاكواب .. وكأن معدتى قفزت بين أصابعى فمددت يدى الى كوب من الشاى دون أن استأذن من أحد .. وفوجئت بأن أحد القوانين المعروفة كان ضمن الذين نهضوا فى الصباح المبكر .. فالقانون اسمه : تقسيم العمل . . فأنا عندما مددت يدى .. امتدت يد أحد الجرسونات تمنعنى من تقديم فنجان شاى الى نفسى .. فهذه مهمته هو .. أنا اطلب وهو يقدم .. فاذا قدمت لنفسى فنجانا من الشاى فقد الغيت وظيفته واعتديت على قانون تقسيم العمل . . واحترمت نفسى والقانون .. وجاءنى الشاى البارد وابتلعته وأنا أغلى من الغيظ !

وأحسست أن هذا الفنجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذى لقيته من القاهرة الى الخرطوم .. وقررت أن أتبنى هذه القضية التى فرضت نفسها فرضا : هل من حقى أن أطلب فنجانا آخر من الشاى الساخن جدا حتى اذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل وقانون البيع والشراء مع ملاحظة أننى لا أملك مليما واحدا ثم ان هذه التحية التى ترجمتها على أنها تحية الى لومومبا من شعب السودان ألا استحق على حملها فنجانا من الشاى الساخن .. ما أعظم الرسالة وما أتفه الاجر ؟!

ونهضت كأى محام فى محكمة النقض وجعلت ذراعى اليسرى ملتصقة بجسمى كأنها تقبض على ملف القضية وذهبت الى الجرسون وقلت : بل أريد الشاى ساخنا ·· أريده يغلى كالثورة فى الكونغو·· وفى كل أفريقيا !

(وكأى) محام لايتكلم فى الموضوع لم يستمع منى الجرسون .. وتركنى أستمر فى الكلام عن نفسى وعن غيرى وجاء الشـــاى الساخن .. واختفيت به فى مكان من مطعم المطار .. وصببته فى أعماقى .. فى أمعـــائى . . وسكت الـكتكوت فى مصرانى الأعور .. وسجلت فى تاريخ حياتى : ان هذا هو أجمل وأمتع فنجان شاى شربته فى حياتى

وبعد هذا الدفء فى جسمى .. وفى الجو . . وبعد أن امتـــلأت الدنيا بالشمس ·· اكتشفت أن فى داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ ·· ومن هذه النوافذ رأيت أفريقيا ذات الغابات الكثيفة ·· الشاسعة ·· وبدأت أرى بوضوح نهر النيل وفروعه ·· ومسطحات مائية واسعة ·· وبعض أصحاب العيون القوية بدأوا يتبارون فى معرفة بعض الحيوانات المتوحشـــة على الارض ·· وتحولت الرحلة الى مباريات فى دقة النظر ·· ومدى القرب أو البعد من الارض ·· وما الذى يحدث لو سقطت بنا الطائرة ·· وأصبحت ضحية لذباب تسى تسى . . ــ والحقيقة أن هذا الذباب ليس فى السودان .. ولكنه فى تنزانيا وأنه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات الألوف من النـــاس ·· فهـــذه الذبابة تنقل النوم الى الجسم الذى تلسعه ·· فينام حتى الموت ·

وعلى الرغم من تشابه الأرض الخضراء تحتنا فان أحدا لم يمل النظر اليها ··

ولم أتمكن من رؤية منـــابع النيل · فقد كان لابد أن أكون على الجانب الآخر من الطـــائرة · ولم أســـتطع أن أتحرك ولا أن أزاحم الجنود ·· ولابد أننى سوف أراها عند العودة · وتمنيت أن تكون عودتنا نهارا !!.

وبعد أن اطمأنت نفسى الى أن الطائرة بخير ·· والى أننا قريبون من الكونغو ·· أسندت رأسى الى يدى ·· واستعرت احدى البطانيات وتغطيت ونمت فى حراسة ضوء النهار ومرح هؤلاء الجنود ··

وصحوت ، وألصقت خـــدى بالنـــافذة ·· فالطائرة تهبط ··

وتقترب من الارض الخضراء الواسعة الشاسعة .. ولاشيءيدل على أن هناك أحدا من الناس ·· لا بيوت ·· لا طرقات ·· بل المطار نفسه لا ندرى أين هو .. لا مطار .. وهبطت الطائرة على أرض مستوية ·· أرض مغطاة بالعشب الاخضر ··

هذه اذن هى الكونغو ·· هذا الاخضرار الواسع ·· هذه الغابات العالية الكثيفة المظلمة الصامتة ·· والتى تخفى عددا من العيون السوداء التى لاتراها .. والتى تتستر على عدد من الاقزام وعلى عدد لا نعرف مداه من أكلة لحوم الانسان .. وغير ذلك من الأوهام والمخاوف التى تشيعها الغابة فى كل من ينظر اليها ··

وأذكر أننى عندما دخلت مطار الخرطوم لقيت أحد كبار الضباط ·· وقد صافحنى بحرارة من يعرفه ·· والحقيقة أن أحدنا لا يعرف الآخر .. ولكن المعنى العام معروف لدى كل منا .. فنحن ضمن القوات المصرية المسافرة الى الكونغو · وهذا يكفى · وانتهزت هذه الابتسامة لأفتح معه حوارا : كانت الرحلة صعبة ·

ولم يرد وانما ازداد عدد الاسنان البيضاء اللامعة فى فمه ·

وعدت أقول له : ولكن ربنا كبير ·· فقد عدنا الى القاهرة مرتين ·· فى المرة الأولى ··

فقال : بلغنى ذلك ·· والحمد لله على السلامة ·

وقلت متشجعا وأنا أريد أن أعرف : كم عدد الساعات التى بقيت حتى تصل الى الكونغو ؟

وضحك بالفعل : لا أحد يعرف ·· فالكونغو واسعة جدا ·· ووجهة هذه الطائرة سر عسكرى ·· واذا هبطت الطائرة فى احدى الغابات ووجدت الذين يتفرجون عليكم من الاقزام فمعنى ذلك أنكم فى شمال الكونغو ·· أما اذا كانوا عاديين فأنتم فى أى مكان آخر ··

ومعنى ذلك اننى يجب أن انتظر أبناء الغابة ليخرجوا . وأحسب أطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة ·· ولم يظهر أحد ·· لا أحد ·· لا ناس ·· لا بيوت ·· لا حيوانات ·· لا حشرات .. لا فراشات .. فالصمت دافىء .. والرطوبة كثيفة ·· وكل شىء ماض فى حياته ·· ونحن فقط دخلاء على ملايين الملايين من الاعشاب والاشجار ··

ولم يكن عنـد الجنود وقت للتأمل ·· فعنـدهم مهمه عاجلة ·
ولذلك تطـايرت البطـاطين والصنـاديق ·· وأديرت محركات
السيارات الجيب وهبطت من الطائرة ·· والتف حولها الجنود ··
وركبوا السيـارات ·· واستعـدوا واصطفوا ·· وصـدرت اليهم
أوامر وتحركوا واختفوا ·

وفي مقدمة الطائرة رأيت قائدها الامريكى · وفلتت منى هذه
العبارة : يا ابن الايه ؟

فقد كان يمسك سندوتشا ضخما فخما وسيجارا كوبيا محترما
وزجاجة بيرة · وكأنه أحـد المسـافرين بالدرجة الأولى فى طائرة
مدنية · فلا أثر للتعب أو الأرق على وجهه ·· ولم تطاوعنى نفسى
أن أسأله عن موعد العودة · فقد أحسست أنه استغفلنـا : ركب
هو فى الجانب المدنى وتركنا نحن فى الجانب العسكرى من الطائرة ··
بلا كوب ماء ·· ولا كوب شاى ·· ولا كلمة ·· وظل يفعل بنا
ما يشاء ..

وجاء أحـد ضباط الأمم المتحـدة وطلب الينا أن نركب طائرة
عسكرية صغيرة تنقلنا الى مدينة كوكياتفيل .. وهـذه هى أول
مدينة فى الكونغو نذهب اليها .. أما هذه الارض التى هبطنا اليها
فليس لها اسم ·· وانما لها رقم فقط ··

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة ··

وكان قائدها بلجيكيا · وهذا مجرد استنتاج ·· لانه لا مبرر
للغضب الشديد على وجهه · ولا مبرر للغيظ الذى ينظر به الينا ··
ولا لتجاهله الاسئلة الكثيرة التى نوجهها اليـه الا أن يكون بلجيكيا !

وكأنه اختصر المسافة المطلوبة فأنزلنا بسرعة فى أرض ملسـاء
خضراء ·· وتركنا نلقى بأنفسنا من الطائرة · وظل هو فى مكانه
من الطائرة · ولا كلمة · ولا اشارة · ولا نظرة · ونزلنا فى أرض
لا نعرف فيها أحدا .. ولا يعرفنا فيها أحد ..

وركبنا سيارة من سيارات الأمم المتحـدة ومعنـا أحد الضباط
المصريين الذى سبقنا الى هذه المنطقة .. ووجدنا أمامنا مطعما .
فدخلنا · ومقاعد فجلسنا · وعلبا محفوظة فامتدت أيدينا · وفتحنا
العلب ·· وبدأنا نأكل ··

والمطعم مهجور · ليس به موظفون · ويبـدو أنه كان مملـوكا

لأحد البلجيكيين الذين هاجروا . وواضح جدا أن المكان مهجور . وكل ضابط أو جندى يمسح بمنديله مقعده . ويمد يده الى أكداس العلب ويأخذ ما يريد ويلقى بالعلب الفارغة فى أى مكان . ولذلك فالمطعم ملىء بالفارغ والمليان ..

وكانت العلبــة الأولى : تونة .. وكانت العلبــة الثــانية : فاصوليــا .. والعلبــة الثالثة : فاصوليــا .. والعلبة الرابعــة : أناناس .. والعلبة الخامسة : خبزا .. ولا توجد أطباق أو شوك أو سكاكين أو أكواب .. وامتدت أيدينــا الى كل شىء .. وأكلنا كل شىء .. ولا طعم لأى شىء . فليس هذا وقت تذوق الطعــام ، وانما هو وقت ملء المعدة بالطعــام .. وبعــد لحظات اكتشفت أن أصعب شىء فى هذه البلاد التى لا تتوقف فيها الامطار هو الحصول على كوب ماء ..

ووجــدت أن المواطنين وهم يتــكلمون الفرنسية التى تبعث على الضــحك .. فهم يغيرون بعض الحروف اثنــاء النطق .. فحرف « الجيم » يصبح حرف ذال .. وحرف الالف يختفى .. أو يصبح حرف باء .. وحرف الميم يصبح حرف نون .. وكل هذه التغييرات مقبولة على العين والرأس بشرط أن تؤدى فى النهاية الى كوب ماء ! ولم تؤد الى كوب ماء .. وانما أسفرت عن وعد بتحقيق هــــذه الامنية فى أقرب فرصة !

والذى نتوقعه عادة من هــذه اللخبطة فى تنــاول هذه الاطعمة المحفوظة الباردة قد حدث .. فهــذا الذى أشعر به هو من المؤكد نوع من المغص الشديد .. والبحث عن المسكنات أصعب من البحث عن الماء .. والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجل بلجيكى فى الكونغو !

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الامم المتحــدة .. وكلهم من الجزائريين الذين وضعوا علامات الامم المتحـــدة .. واقتربت وسلمت . وطلبت الماء . وجاء الماء . وطلبت الدواء ووجدت الطبيب والدواء . وكان الطبيب دنمركيــا . وعرفته بنفسى وبزمــلائى . وضحك الطبيب وقال : احترسوا من الامراض الخبيثة !

ولم يضحك عندما قالها . وانما كان جادا . ولذلك استوضحته . وكان رده : انه توجد أمراض جلدية مستحيلة العلاج !

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخبث من الامراض الخبيثة !

فقد كان يريد منا ألا نصافح أبنــاء الكونغو أينما وجدناهم ‥ المواطنين العــاديين والموظفين .. فمن عادة أهل الكونغو أن يمدوا أيديهم بالسلام · فقد كان من المحرم عليهم أن يصافحوا البلجيكى الابيض ‥ ثم ان هــذا البلجيــكى قد عاش عشرات السنين وهو يقطع أيدى أبنــاء الكونغو لأتفه الاسباب ‥ فاذا نحن ترفعنا عن مصــافحتهم ، ونحن افريقيون مثلهم ، كنــا أسوأ من البلجيكيين المستعمرين !

ولذلك لم أكد أرى واحدا من ابناء الكونغو حتى تقدمت اليه.. دون أن أرى الرمح الطويل الذى ألصقه بجسمه ودون أن ألاحظ أنه عريان تماما ، ومددت يدى وقلت له ما معناه : ازيك يا أخ ‥

ولا أعرف ان كانت العبارة التى قد صدرت منه معناها : العبيط أهوه ‥ أو كان معناها : لقد مضى وقت طويل لم يصافحنى رجل أبيض !‥

وان كنت أشك فى أن لونى كان أبيض فى ذلك اليوم.. فالسهر الطويل ..والارهاق الشديد..والجوع والاضطراب النفسي والمغص قد جعلنى أصفر اللون ‥ ولابد أن أعصابى كانت مشدودة لدرجة أنها سحبت عينى من وجهى فأدخلتهما بضعة مليمترات الى الوراء ولا بد أن شعرى قد ازداد كرمشــة ‥ وأصبح أقرب الى شعر الزنوج ‥

على كل حال هذه صورتى كما أراها أنا . أما صورتى كما يراها هذا الأخ الزنجى فلا أحد يعرف مداها ‥ ولكن مهما كانت صورتى فى عينيه ، فانها لم تمنعه من أن يمد يده ‥ ويضغط على أصابعى بقوة · كأنه يؤكد لنفسه أن الذى يمسكه لحم آدمي أبيض حقيقى ‥ وأنه ليس حالما · وان كنت أنا على يقين من أنه حالم فعينــاه لهما بريق غير محدد ، وحدقتــا العينين جامدتان · انه يشبهنى عندما ذهبت للقاء ملكة الفجر فى شمال ايطاليــا وكنت من المعجبــين بها . وأدخلتنى حاشيتها فى غرفة من داخل غرفة .. لأجدها أمامى عارية تماما .. وفى دورة المياه !

ويبدو أن مصافحتى لهذا الزنجى قد شجعت زوجته أو ابنته على أن تمد يدها ‥ ومن وراء الاشجــار ظهر كثيرون ‥ وامتدت أيديهم بالسلام والتحية ‥

وعندما عدت الى السيارة قال لى الطبيب الدنمركى : انك شخصية

محبوبة هنا ·· وعثرت في أعماقي على ابتسامة قديمة فأطلقتها ·
ثم عاد يقول لى : وأنت محظوظ أيضا ·

وعرفت اننى محظوظ حقيقة .. فلو نزلت طائرتنا فى منطقة أخرى الى الشمال قليلا ·· لكنت بطلا لمأساة حقيقية · فمن عادة القبائل هناك أنهم اذا اطمأنوا الى شخص أحبوه · واذا أحبوه بصقوا على وجهه ·· فالحمد لله !

ولا أذكر من الذى سألنى ما هى أحسن أغانى أم كلثوم لديك فقلت : النوم ..

فقد كنت أحلم بالنوم .. اذ أحسست أن جسمي أعلن العصيان .. لا شيء يطاوعنى .. أحاول فتح عينى فلا أقوى .. أحاول مد ساقي فلا أستطيع .. أحاول أن أقعد فأتوجع .. أحاول أن أقف فأدوخ .. أحاول ان أفتح فمي فيخرج الكلام طليقا غير معقول — ومعنى كلمة « معقول » هو بالضبط المعنى العربى القديم الذى قصده رجال البادية : عقل البعير أى ربطه بحبل .. والكلام غير المعقول أى غير المربوط بحبل من المنطق والفهم !.

ودخلت بنا السيارة الجيب فى أحد القصور .. القصر له حديقة .. والقصر من دور واحد .. وعرفنا بعد لحظات أن المكان مهجور .. والتراب الكثيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد ذلك .. وأوراق الاشجار التى غطت الطرقات لم تمسسها يد ولا قدم منذ سنوات طويلة .. ولا أعرف ان كانت هذه الطيور القاتمة التي تتكاثر فوق رؤوسنا طيورا حقيقية أو هى أوهامي.. أو هى الطيور التى رآها فرعون مصر وهو يروى أحلامه للنبى يوسف عليه السلام .. هل هى غربان أو صقور .. أو عصافير أو فراشات .. أو هى نقط حائرة فوق حروف الكلمات التى لا تقوى على الخروج من فمي .. أو التى خرجت بالفعل من أفواه الزملاء ولم أجد لها معنى ولا طعما ! ..

ليس هذا قصرا مهجورا . انه أحد الاديرة . وقد تركه الرهبان .. ووجدت فجأة اننى أستطيع أن أفتح عينى وأن أتحكم فى قدرتي على الفهم والتركيز عندما سمعت من أحد جنود الامم المتحدة أن فى الدير مكتبة جيدة .. وانه فى امكانى أن أراها لو أردت .. والحقيقة اننى أريد ولكننى لا أستطيع .. واذا لم أستطع اليوم ، فسوف أستطيع ذلك غدا . وعلى مهل .. وتخيلت

نفسى بسرعة اننى احمل معى الى القـــاهرة عشرات من هـذه الكتب .. ولم أستطع أن اتخيل اننى أحمل المئات .. فقد كان خيالى عاجزا عن المئات فاكتفى بالعشرات ..

وكان لابد أن ننتظر بعض الوقت حتى يعثروا لنـا على غرفة نظيفة .. أو على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة .. وحتى يجدوا الشخص الذى يتطوع لتنظيفها .. لان أحدا لا يمكن أن ينظفها بالامر .. فلا احد هنا يامر ولا أحد هنا يطيع .. لا حكومة .. لا دولة .. لا قانون .. فالحكومة منقسمة قسمين .. والقسمان منقسمان قسمين .. ولا احد يقوى على تنفيذ الاوامر المتضاربة التى يصدرها الرئيس كازافوبو .. والرئيس لومومبا .. والرئيس تشومبى .. (وأرجو أن تعفينى من ذكر أسماء شـيوخ القبائل التى يصل عددها الى ألف قبيلة !) ..

واخيرا قيل لنا أن هناك غرفة ..

وعلينا ان نصبر ساعة أخرى ..

وعلينا ان نشغل انفسنا بأى شىء ..

وفجأة قال واحد منا : لو انفتحت لك طاقة القدر فما الذى تطلبه .

فأجاب احدنا : كوب ماء !

وقال آخر : دشاباردا ! ..

وقال ثالث : سندوتش فول ..

وقلت أنا : اطلب اليهـا أن تظل مفتوحة نصف سـاعة .. لان الذى احتاجه كثير جدا !

وكأن طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا الغرفة .. وفى الغرفة سرير .. وفيها مصباح ..

وكأن طاقة القدر انقفلت : فقد كان من الضرورى أن ننام جميعا فى هذه الغرفة .. نحن الاربعة ننام على السرير .. أو اثنان ينامان على السرير .. واثنان ينامان على الارض ..

وفى هذه اللحظة اعترضت على أن تكون أغنية النوم هى أحسن الاغانى .. وانما أغنية : ياليل نجومك شهود على لوعتى يا ليل ..

وكان التعب أقوى من خيالي ومن أحلامي ومن بقايا الكبرياء.. وارتميت على الأرض .. ولم يكن يفصل بيني وبين الارض غير الصحف الصباحية التي جئت بها من القاهرة .. وتمددت .. وتشجع زميل آخر فنام الى جواري .. أما الزميلان الآخران فقد ناما على السرير .. ولم يقو أحد منا على أن يطفيء النور .. أما من التعب .. واما من الخوف .. واما من الحرص على اصطياد الحشرات والهوام التي تتساقط من السقف علينا .. أو التي تكون في طريقها من الارض الى السقف فتفضل أن تخترق أجسامنا .. أو تفضل أن تبيت في ملابسنا على أن تبيت في العراء .. أو لعلها قد اشتاقت الى اللحم الابيض ..

واعتقد انني نمت بعض الوقت .. كأنني قطعة من الحديد الملتهب أسقطت في ماء بارد .. فبعد لحظات من النوم المفاجيء العميق صحوت .. لأجد نوعا جديدا من النار .. فقد تكاثرت الحشرات على عنقي وساقي .. وعرفت أهمية المصباح المضيء.. وفتحت عيني ـ أستطيع أن أقول انني أنا الذي فتحت عيني.. وهذا اكتشاف عظيم لأنه يدل على انني قادر على التحكم في أعضائي ـ ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات عبثا .. فلا يمكن حصر هذه الحشرات .. انها جيوش .. ولا أعرف بالضبط ما اسمها .. انها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق .. ولا كالصراصير .. انها مستديرة وزرقاء وحمراء ولامعة .. وتمشي في جميع الاتجاهات.. وتوهمت ـ من شدة الخوف ـ ان احداها هي ذبابة تسي تسي .. واظن أنني قد رأيت صورة لهذه الذبابة في بعض الكتب .. ومعنى ذلك أن « النوم » ليست أغنيتي المفضلة .. ولكنه نهايتي المحتومة ..

ووجدت زملائي جميعا نائمين .. ومنعني الحياء أن أوقظ أحدا منهم .. ومنعني اليأس من أن نشترك جميعا في مكافحة جيوش الحشرات الاستوائية .. ولو أيقظتهم فأين نذهب .. ان الليل طويل .. والصمت رهيب .. والاصوات التي تجيء من بعيد لا أول لها ولا آخر .. وربما كان الصوت الوحيد الذي استطعت أن أميزه هو صوت التماسيح .. انها تبكي كالاطفال.. ونحن على مسافة أمتار من نهر الكونغو الهائل .. الواسع العميق الثائر .. وهو مليء بالتماسيح ـ أما الصرخات والهمهمات والهمسات .. والصفير والشخير .. والمواء والعواء .. فلا أعرف لها مصدرا ..

اذن لابد أن أسكت ..

ولكن لم أستطع.. فأنا ما أزال مرهقا.. والراحة التى حصلت عليها تكفى لأن افتح عينى . وتكفى لأن أشـــعر بهذه الحشرات المروعة ..

وناديت زميلا نائما على السرير وقلت له : اصح .. اصح ..

قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شيء ..

قال : يا أخى اسكت .. أنا تعبان

قلت : أنا تعبان أكثر منك .. ولكن أريد أن أسألك ..

قال : تسألنى الآن ؟.

قلت : ضرورى .. المسألة فى غاية الخطورة ..

قال : هل انت جاد ..؟

قلت : جدا ..

واعتدل فى جلسته ليسمع منى هذه القصة التى لا أساس لها من الصحة .. قلت : ان الطعام الذى تناولناه من ســاعتين كان عبارة عن لحم قرد .. وأنا أعرف هــذا اللحم . فلقد أكلت لحم القرد أكثر من مرة .. وأعرف النتيجة .. أعرفها .. بل أشعر بها .. لقد سبق لى أن شعرت بذلك .. ولولا أن طبيبا انقذنى لكنت الآن فى حديقة الحيوان بهونج كونج ..

ولاحظت أنه فتــح عينيه .. وأخذته الدهشــة .. وسحبته الدهشة من قلب السرير حتى طــرفه .. وسحبت قدميه الى الارض .. وسألنى : لا أفهم ماذا حدث بالضبط ؟

اذن هو يريد أن يســمعنى من جديد .. اذن هو قد صــحا تماما .. وهو خائف جدا . قلت له : لقد أكلت لحم القــرد فى هونج وكونج .. ومن خصــائص هذا اللحم أن الذى يأكله تظهر عليه أعراض القرد .. فيهرش وتتغير نبرات صوته ..

وراح ينظــر الى يدى وهما تهرشان جنبى ، تماما كما يفعل القرد ..

وبدأ الخوف على وجهه عندما وجدني جلست مقرفصـــا .. اعلو وأهبط ..

وسألني : والحل ؟

قلت : لا اعرف ..

قال : الا يوجد دكتور هنا .. طبعا هنا يعرفون هذه الكارثة التي تصيب الاجانب .. ولا بد أن لديهم مناعة ضد لحم القرود..

ولم أزد عن قولي وأنا أهرش بشـــدة على عبارة : لا أعرف .. لا أعرف !

أما الاحمـــرار الذي كان في عيني ، واما البريق الذي صاحب هذا الاحمـرار فهو بسبب براعتي في التمثيل .. واحســاسي باقتراب النهاية ..

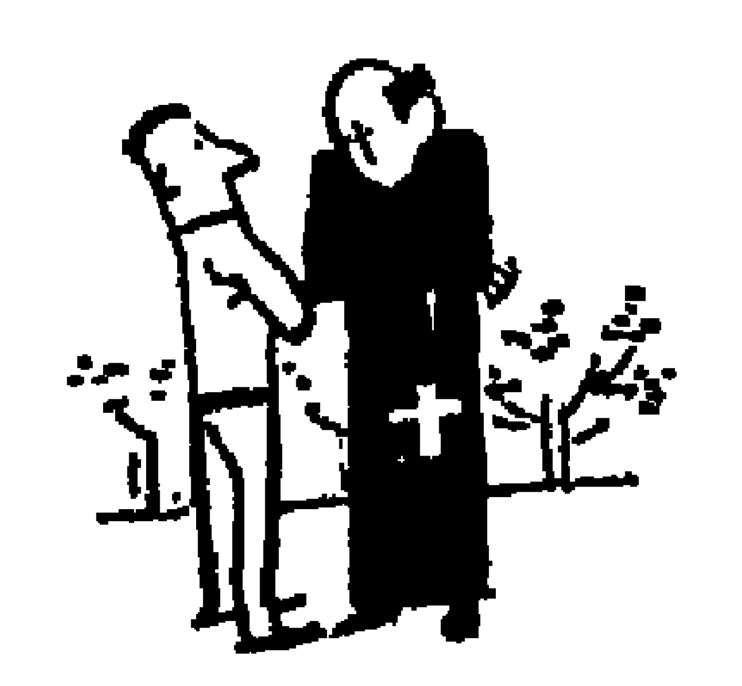
وجاءت النهـاية : لقد قفز من السرير .. خائفـا وانطلق الى خارج الغرفة ..

وقفزت فوق السرير بكل قوتي ..

وسقط السرير ..

ولم تتم فرحتي !

⊙❖⊙



أى خدمة ياولدى !

وإذن .. فقط عرفت ما معنى كلمة : المستحيل ..
والجواب المستحيل هو كل شيء .. وأى شيء ..
فلا أمل عنـــدى فى كوب ماء .. أو لقمـــة عيش .. أو صابونة اغسل بها وجهى .. مع أن الماء هنا تحت كل مليمتر من الأرض أو من قشر الشجر . والفاكهة هنا فى الغابة فى عدد أوراق الشجر .. ولكنها ممنوعة .. ويقـــال مسمومة .. ولكن أهل الكونغو عنـــدهم مناعة ضد السموم وضد الحشرات والزواحف وضد كل عوامل المرض والفناء .. أما لانهم مرضى بالفعـــل .. أو موتى حقيقـــة .. واما لأن هـــذه الحشرات قد ملت دماءهم وتتطلع الى دماء جديدة .. مع أن تركيب الدم واحد عند كل النـــاس .. وربما كان الخـــلاف بين الدم والدم هو فى الغطـــاء الخارجى .. اى فى البشرة فقط ..

ووجدت مواطنا فى الطريق المرصـــوف ـ وكل الطرق هنـــا مرصوفة وناعمة .. الوف الكيلومترات . وقد حرص البلجيكيون على الطرق الكثيرة والمطـــارات المتعددة .. فالبلاد واســـعة ـ وسألته : الا توجد هنا دار للسينما ..

وقال الرجل : كانت عندنا أكثر من دار ولكنها الآن مقفلة .

قلت : السينما فقط .؟

قال : لم أفهم ..

قلت : أقصـــد صالة العـــرض هى المقفلة أما المطعم فلابد انه مفتوح ..

قال : كل شيء مغلق ..

قلت (ضاحكا ومحاولا أن أكون ظريفا) : اذن بلادكم الواسعة تضيق بالأصدقاء ..

قال : لماذا ؟

قلت : لأنني لا أجد كوب ماء .. ولا أقول فنجان قهوة ..

قال : بل هنا مطعم قريب ..

قلت : مطعم ؟ قريب ؟

لم أسمع كلمة مطعم بوضوح رغم انه قالها .. وأنا رددتها .. وكدت أسحب ذراعه .. واسحب يده .. واصبعا من يده واشير الى مكان المطعم .. واشار هو براسه فى اتجاه المطعم .. ولم أجد وقتا لأشكره . وذهبت وورائى الزملاء ..

انه مطعم جيد .. نظيف .. وعلى شاطىء نهر الكونغو .. ولا أعرف اسمه . والاسم ـ كما يقول شيكسبير ـ لا يهم ..

والمطعم له كل ملامح المطاعم الاوروبية الجيدة .. وبه مناضد وترابيزات .. وبه أهم من المناضد أناس .. وأهم من هؤلاء الناس : نساء .. نساء جلسن وحدهن .. وأمامهن زجاجات البيرة الصغيرة والكبيرة .. ومن بين الزجاجات يتعالى دخان السجائر .. أما أصواتهن فأعلى من هذا الدخان ..

دعنى أحدثك عن هذا المظهر المفاجىء للحياة ..

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء .. الجيب بيضاء والبلوزة ملونة .. وكل واحدة لا تقل سنها عن ثلاثين عاما ولا يقل وزنها عن ٨٠ كيلو جراما .. ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمتر .. أما خط الصدر فمثل خط الارداف أكثر من ١٢٠ سنتيمترا .. وأما خط الخصر فنصف ذلك ..

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع .. واذا صح فهمى لحركات السيدات فان هذه الارتعاشة فى العين هى غمزة فى اتجاهنا .. وعلى سبيل اللعب والشقاوة حاولت أن أعرف من هو المقصود بهذه الغمزة فاخفيت وجهى وتشاغلت بالكلام .. واستمرت عملية الغمز بالعين اليمنى مرة واليسرى مرة أخرى .. اذن فلست أنا المقصود .. وانما المقصود هو كل من يجلس معى .. أو نحن جميعا .. فهى غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رأيكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل تظن أن الفتيات سوف يدعوننا الى الغداء ..

قلت : أما الغــداء فلا أريده .. انما أريد فنجان قهــوة .. ومتنازل عن الغداء والعشاء ..

وغيرت مقعدى .. وأدرت ظهرى للفتيات .. ولكن أذنى كانت تلتقط كل ما يصدر عنهن من كلمات .. وكان الحوار بين الثلاث فتيات تقريبا هكذا :

ـ أظنهم جماعة من اليونانيين جاءوا يفتحون دكانا هنا ..

ـ معك حق .. فاليونانيون موجــــودون فى كل مكان .. ولو غرقت الدنيا لظهر رجل يونانى يبيع أطواق النجاة ..

ـ ولكن يظهر أنهم جميعا ليسوا تجــارا .. فأغلب الظن أن أحدهم طبيب .. فأصابعه رقيقة .. وحركاته بحساب ..

ـ أيهم ..؟

ـ ذلك الذى أعطانا ظهره .. وهو أكثرهم حركة وأكثرهم قلقا

ـ طبيب ؟ انه أقرب الى المرضى منه الى الأطباء ..

ـ لعله عاشق ..

ـ وجاء يتوب فى الكونغو ..

ـ طبعا على يديك ..

وهنا تقدم جرسون وعلى يديه صينية بها أربعة فناجين قهوة.

وقبل أن أســأله كيف عرف اننى أكاد أموت شــوقا وعطشا ومزاجا الى فنجان واحد أشار بيده الى حيث جلست الفتيات الثلاث ..

وكان من الذوق أن أستدير لأشكر .. وبعد أن أشكر أتساءل كيف عرفن ذلك ..

واســتدرت لأشكر .. وانفردت صاحبة الغمــزات واللمزات بالشكر .. وبحركة من يدها رفضت الشــكر . تماما كأن الشكر كرة تنس ويدها مضرب .. وأصابنى الشكر فى دماغى .. فقررت أن أذهب اليها أشــكرها .. وأعرف منها كيف عرفت .. وهل يمكن أن يذهب بها الكرم لدرجة أن تأمر لنا بفنجان آخر ..

ومددت يدى شاكرا لها .. وشاكرا للاخرى .. وللثالثة .. وسحبت مقعدا وجلست وقدمت نفسى .. وقدمت كل واحدة نفسها : جورجيت .. سوزى .. نادية ..

قلت : نادية .. اسم عربى .. ويمكن عالمى ! ..

قالت : أنا عربية .. وعندى كمية كبيرة من البن اليمنى ..

قلت : ربنا يديم العروبة .. والاخوة .. والقهوة .. ويعوضك

قالت : يعوضنى عن ماذا ؟

قلت : عن كل ما عندك من بن !

قالت : كل البن ؟ بعضه فقط !

قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا ..؟

قالت : عاطلة .. وزميلتى عاطلة جدا .. والزميلة الثالثة ضائعة ..

قلت : الحال من بعضه .. ونحن أيضا نريد أن نعمل ولكننا لا نستطيع .. لا لأنه لا يوجد عمل ولكن لأنه لا يوجد وقود .. لا ماء ولا طعام ولا مأوى ..

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذى يبدو أنه موقف تسول .. مع أن هذه هى الحقيقة ..

وعندما مددت يدى أعتذر وأكرر الشكر .. بدا الضيق على وجوه الثلاث فتيات .. أما السبب فهو اننى تظاهرت بأننى لا أفهم بوضوح ما يقلنه .. ولم أفهم معنى أن الثلاث يسكن فى فيلا مهجورة فى آخر المدينة .. وانهن يفضلن ضوء الشموع على المصباح الكهربائى .. وانهن يفضلن الطعام الساخن جدا مع المشروبات المثلجة جدا .. وانهن يتفاءلن برقم سبعة : هن ثلاث ونحن أربعة .. وأن اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع .. مجرد صدفة ذكية ! ..

ولم أفهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة ..

وأعتقد أن كلمة : « دوبشــه » وهى كلمــة بدائية كونغولية معناها : غبى ..

لقد تكررت هــذه الكلمة عشر مــرات على الاقل فى كل مرة أعترف فيها : اننى لا أفهم ..

وانا اقطع بأن هذا معنـاها .. لاننى لاحظت ان هذه الكلمــة تخرج من الفم مع مط الشفتين الغليظتين وحركة بالقــدم على الأرض .. تماما كما يبصق انســان على الارض ثم يخفى معالم هذه الجريمة الصحية بحذائه !

وأفقت من هذه المناقشة على ســـؤال رن فى أذنى : معقول نصل الى الكونغو ولا نرى لومومبا .؟

صحيح هل هذا معقول .

وكان الجواب ان هذا معقول جدا . فنحن لا نعـرف أين هو الآن .. ولا أحد يعرف .. فهو قد أخفى مكانه عن رجال القبائل وعن خصومه .. وحتى لو عرف الناس مكانه فانهم لا يستطيعون الوصول اليه .. فلا توجد مواصلات .. التليفون وحده لآ يكفى .. لان التليفون يصل بين بعض المدن فقط ..

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مغتصبة للفتيات الثلاث ..

وعندما خرجنا من المطعم قابلنـا الطبيب الدنمركى وسألته : هل هناك أمل فى رؤية لومومبا ؟

فأجاب : لا أمل .

قلت : المواصلات ..؟

قال : أنا أعرف مكانه .. ولكنه هو

قلت : ماله ؟

قال : انه فى حالة نفسية سيئة جدا .. لا يكف عن الصراخ والشراب فى وقت واحد .. وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا ، وكثيرا ما تحول الشراب الى صراخ .. الى مغص واغماء ..

قلت : اذن ما الذى نفعله ؟

قال (ضاحكا) : حاولوا اقناعه بأن يكف .. ،

قلت : أسهل أن أكف أنا عن طلب أى شيء منك ..

قال : هل غضبت ؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس أمامنا أحد ســواك .. نسأله فلا يجيب ..

ولكن كان من الصعب أن أقتنع باســتحالة لقاء لومومبا .. واتفقنا على أن نبحث عن طريقة لرؤيته .. ولكن اتفاقنا لا يهم ولا قيمة له .. ما دمنا عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق .. أو عن الانتقال من مجرد الكلام الى العمل ..

وعندما عدنا الى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الامم المتحدة سألت أحد الضباط السويديين : الا توجد طريقة لرؤية لومومبا ..

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم ..

وعرفت أنه اختفى في مكان .. في أى مكان .. فليس من الضرورى أن أعرف أين .. لأنه من السهل على هذا الضابط السويدى أن يشير بيده المربوطة بالشاش الأبيض الى الغابة .. أو الى نهرالكونغو .. لأفهم أن لومومبا قد اختفى فى هذه الأماكن

وسألته ان كانت هناك أية صحف.. اية خرائط .. اى جهاز راديو لنسمع أى شىء .. لنعرف أى شىء ..

رفع كتفيه الى أعلى كأنه يلقى بالمسئولية من فوقهما .. وحمدت الله أن المسئولية قد سقطت على الارض .. ككل شىء هنا : على الارض وفى الارض .. فلا أحد مسئولا عن أى شىء .. ولا حتى قوات الطوارىء الدولية .. انها قد ارتدت الملابس الأنيقة .. وكدست وراءها العلب الملونة لأنواع الطعام المختلفة.. وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار .. ووجوهها بالابتسامة وبالضحك ... اما مرتباتهم فتتحول من تلقاء نفسها الى البنوك ..

أما الناس الذين جاءوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئا : لا حكومة ولا شعبا .. ولا لومومبا !

وتساءلت فجأة : ما الذى يمنع أن تكون هذه البلاد أى بلاد اخرى .. فلا يوجد أى دليل على أننا فى الكونغو .. فان أحدا من الناس الذين قابلتهم قد ذكر لى اسم هذه البلاد .. بل انني فى مطار القاهرة قد سمعت اسم الكونغو من أحد رجال المطار .. ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم يكن يقصد الطائرة التى سوف أسافر بها .. وانما ذكر كلمة الكونغو مرادفا لكلمة هيصة .. وأتذكر انه قال بالحرف الواحد : اصلها هيصه .. كونغو !..

ولا توجد هنا لافتة واحدة . .

ودفعنى هذا الشك الى أن أقف هذا الموقف المضحك .. فالتفت الى موظف ارتدى القميص والبنطلون وقد ظهر جادا

مهمـوما .. أو هكذا حاول أن يبدو أمامى .. ربما لانه وجدنى مهموما .. أو ربما وجدنى خاليا عاطلا ، فانتهز هذه الفرصـة ليبدو اكثر أهمية .. واكثر فائدة لبلاده .. اقتربت منه وأطلقت ابتسامة عريضة فى وجهه .. كأنها يد ممدودة لتحيته .. وقلت : قل لى .. أى بلد هذا .؟

فأجاب : انه بلد ..

قلت وأنا أحاول أن أعرف حقيقة : الذى يراه لأول مرة يتصور أنه الكونغو ..

فضحك قائلا : هل تعرف ما الذى قاله فيكتور هيجو عنـدما كان مريضا .. ونظر الى نفسه فى المرآة .. قال : الذى لا يعرفنى يخيل اليه اننى رجل حاقد على فيكتور هيجو .!

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته : هل هذه هى الكونغو حقيقة .؟

فأجاب : لا افهم ماذا تقصد.. كيف كنت تتصورها.. تماسيح واكلة لحوم البشر .. اننا يا سيدى لم نأخذ فرصتنا فقط .. وأنت تعرف مثل هذا المعنى .. أما انكم فى الشـمال قد نسيتم الاستعمار وماذا يعمل فى الشعوب ..

لم أنس طبعا . ولا يمكن أن أنسى ..

وأهم من هذا كله أن هذه هى الكونغو ..

ولا أعرف ما الذى استفدته بعد أن تأكدت من أن هذه هى الكونغو .. لم أستفد شيئا . ولا أعرف كيف أضيف الى معلوماتى شـيئا جديدا . ولو عدت الى القاهرة وسألنى الناس أين كنت فلا يوجد أى دليل مادى على أننى برحت أرض القاهرة . . فلا أنا رأيت الخرطوم ولا أنا رأيت شيئا فى الكونغو ..

وكأن أحد الزملاء سمعنى وأنا مشغول بالحديث مع نفسى .. وكأنه رآنى أضرب فكرة بفكرة .. تماما كما أضرب كفـا بكف .. وكأننى كنت مسموعا فقال : عندك مانع نقوم بمغامرة .

قلت : أليست هذه مغامرة أيضا . .

قال : مغامرة أخرى محددة .

قلت : مثلا .. تقترح ماذا ؟

قال : نركب هذه السيارة ونخرج بها من المطار .. وهى سيارة للامم المتحدة .. ومفروض اننا جئنا مع قوات الامم المتحدة ونعمل فى خدمتها .. ما رأيك بسرعة .. لاتفكر !

ولم يكن عنـدى مانع .. المهم ان أخرج من هذا الفراغ الذى فى نفسي والذى حولي .. وان ألمس شيئا أو أحدا .. وان أسأل وان اعرف .. وأن أقول وان يقال لى شىء ..

واتجهنا آلى السيارة ..

وفى هذه اللحظة وجدنا أربعة من الجنود اتجهوا اليها أيضا .. ولان أحـدا منهم لم يتصـور أننا نفكر فى مغامرة : ركبوها دون أن يسألونا شيئا .. لقـد كانوا أسبق منا الى تحقيق رغبـاتهم ..

والذى صنعوه هو رغبة وليس مغامرة ..

واقترحت على زميل لى : ألا توجد عندك رغبة فى ارتكاب جريمة لن يعاقبك عليها القانون .. لان القانون اختفى هو الآخر فى الغابة أو فى النهر ..

قال : أريد أن أقتل فعلا

قلت : الجوع .. والعطش .. والارق

قال : وهذا الرجل !

وأشار الى أحد الموظفين من أبناء الكونغو . فقد ذهب اليه يسأله عن مكان يغسل فيه يديه ..

ولكن الموظف لم يرد عليه .. فظن أنه لم يفهم لغتـه الفرنسية فتحدث اليه بالانجليزية .. ولكن الرجل لم يرد ..

وقررت أن أذهب اليه .. لابد أن هناك شيئا .. ان هناك قصة .. موضوعا .. كلاما .. شيئا مثيرا يهزنى من داخلى .. فأنا نائم فى جلدى .. أو ميت فى جلدى منذ أكثر من ٢٤ ساعة ..

وعندما اتجهت الى الرجل الكونغولى ، لاحظت أن كلمة «تواليت» معلقة على باب مكتبه .. ومعنى ذلك أن هذا المكتب كان قبل ذلك « دورة مياه » ثم تحول بسبب زحف قوات الامم المتحدة الى مكتب ملىء بالنشاط والحياة .. أى الى « دورة حياة » .. ولابد أن هذا المواطن الكونغولى قد توهم أن زميلى انما أراد أن يسـخر منه ..

وجاء يطلب منه أن يخلي له المكتب بعض الوقت فيتمكن من أن يفعل شيئا ما في ركن من أركان الغرفة !

وعذرت صديقي فقد كان مرهقا ، وعذرت الرجل الكونغولي فلم يكن يدري أن المكتب رغم مابه من أوراق ، مايزال يحتفظ برائحته القديمة الاصيلة !!

◉❖◉

وعلى الرغم من أن البقعة التي نتحرك فيها ضيقة .. فانها تدل على كل شيء في هذه البلاد ..

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكثيرة .. والمطارات متناثرة في كل مكان .. والمطار عبارة عن قطعة أرض مغطاة بالاعشاب وموجودة في قلب غابة .. أو على اطرافها .. والسكك الحديدية أيضا تربط البلاد من كل جوانبها .. والسيارات التي تراها من حين الى حين لا بأس بها .. والبلجيكيون قد أعدوا لانفسهم كل وسائل الراحة والمواصلات أهم المشاكل في الكونغو الواسعة . وهي مريحة جدا ..

كما أنهم تركوا شيئا من التزمت في البلاد أيضا . فقد لاحظت ونحن نركب سيارة الامم المتحدة أن بعض المشاة قد احتجوا علينا .. وظننا أنهم يحيوننا في حماس غاضب .. أو في غضب من نوع خاص .. ولكن لاحظنا أن الاحتجاج تكرر مرة وراء أخرى .. وكان السبب واضحا : اننا نمشي على الجانب الايسر من الطريق واننا لانستخدم الكلاكس .. أو أننا نسرف في استخدامه !

وفجأة ــ كأنه هبط من السماء ــ رأيت أحد رجال الدين .. وهو ككل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل في جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى مابعد الحياة .. ولانه رجل من رجال الدين فهو يمشي في كل طريق وفي كل وقت آمنا مطمئنا .. وقبل أن أتجه اليه ، كان هو قد اتجه الي .. انه طويل القامة .. أبيض اللون .. لامع الجبهة والمنظار ، والاسنان والاصابع .. بها خواتم ذهبية وفضية .. ومددت يدي وهو أيضا .. وكأنه توقع أن أقبلها .. ولم أفعل فليس عندي سبب يدعوني الى ذلك .. وقال بحكم العادة : ماذا وراءك ياولدي !

وهزتني هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . فلم أسمع من أحد منذ عشرين عاما يقول لي : ياولدي .. فقد مات أبي ولم أعد أجد معنى لهذه الكلمة بعده أو قبله .. ومن الغريب انه تصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدي .. صدفة ..

وفى هذه اللحظة استعرت جو الكونغو .. فالتهبت مشاعرى وتساقطت منى الدموع ..

واقترب منى القس .. ولكنه لم يعرف لماذا حدث ماحدث .. فقلت : عندى همومى الخاصة ..

فأجاب بحكم العادة : أعانك الله عليها وعلى نفسك يا ولدى ..

واستجمعت رجولتى وحاولت أن أكون أكبر من الموقف .. وسألت القس ان كانت هناك اية وسيلة أخرى للحركة ولقاء الناس .. فنحن أقرب مانكون الى أسرى الحرب .. أو كجماعة يلعبون لعبة « المساكة » .. فقد سافرنا من القاهرة ولمسنا جدران الكونغو وسوف نعود غدا أو بعد غد ..

وهز راسه يؤكد لنا انها بالفعل لعبة المساكة .. ولعبة الاستغماية .. واننى لو أقمت فى الكونغو سنة أخرى فلن تتغير اللعبة أيضا ..

وحاولت أن أجعل للكلام معنى فسألته عن المكتبة التى يقال انها موجودة فى أحد الاديرة .

فأجاب بأنها نقلت من الدير القريب الى دير آخر يبعد سبعين كيلو مترا .. وهذه المسافة تعتبر فركة كعب فى بلاد واسعة شاسعة مثل الكونغو ..

وسألنى عن أى نوع من الكتب فقلت : اى نوع ..

وضحك وهو يقول : اعرف هذا النوع من القراء ..

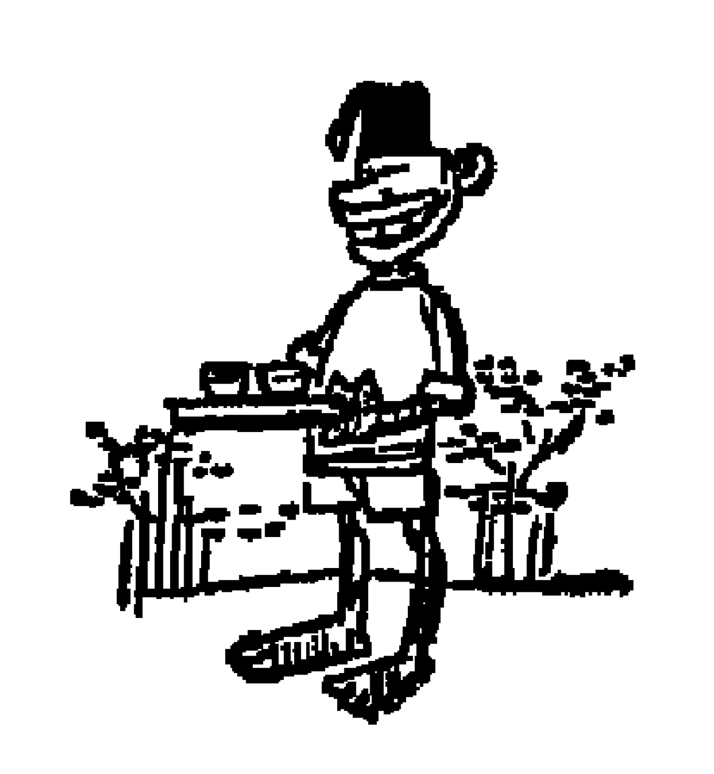
وسكت .. وهز رأسه فى أسف تقليدى : كنت مثلك !

أى أنه كان مثلى يقرأ أى شىء ثم تاب الله عليه ليقرأ شيئا محددا .. أو ليتوقف عن القراءة !

وقاومت رغبتى فى أن أقول له أنى فى حاجة الى فنجان قهوة .. وان زملائى المساكين فى حاجة الى رغيف عيش . . واننا جميعا ــ مثله ــ على باب الله . !

وكأنه على موعد مع أناس آخرين قال : هل تريد منى خدمة ياولدى !

وفقدت شهيتى الى سماع كلمة يا ولدى .. وشكرته .. وفى اللحظة التى تلقى منى فيها الشكر ، رفضه بهزة من يده ورأسه .. واستدار بسرعة .. واختفى فى سيارته .. واختفت سيارته الصغيرة فى الطريق الطويل . !



أهلا .. أمين باشا !

أما الورقة التى فى جيبى والتى تسلمتهـــا عند نزولنا الى مطـــار مدينة كوكياتفيل فهى تذكرنا بأنه من الضرورى أن نلتقى جميعا فى المطار فى مكتب ضابط جزائرى ..

وفى الموعد المحدد ذهبنا ..

المكتب نظيف .. الارض كملابس الضـــابط نظيفة ولامعة .. وكأنها هى ايضـا « مكوية » .. والابواب مثل الزراير نصفها معدنى والنصف الآخر خشبى ..

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة أو الشـــاى أو يسألنا ان كانت عندنا أية رغبة فى تناول شىء .. لقد نسى الرجل أنه عربى ، ولم يعد يذكر الا ملابسه والاشارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته .. والا العلم الذى يرفرف أزرق فى أبيض على المبنى .. وكانت محاولة خبيثة من جانبى أن أتحدث اليه باللغة العربية .. وكانت محاولة يائسة منه أن يتكلم بالفرنسية .. هو يذكرنى بأنه أمم متحدة ، وأنا أؤكد له أنه عربى .. أو أنه من الواجب أن يكون عنده شىء من كرم العـــــربى .. وانتهت المباراة الى نجـــــاح الامم المتحدة !

وتنفيذا لقرار الامم المتحدة يجب أن نعود الى القاهرة بعد ساعات .. لان الطائرة التى حملتنا هى الطائرة الوحيدة التى يمكنها أن تعــود بنا واذا لم ندرك هذه الطـــائرة فسوف يفوتنا كل شىء ..

وأول مايخطر على البال طبعا أن يتلمس كل منا جواز السفر الذى فى جيبـــه ويســأل عن ادارة الجـوازات وعن تأشـيرة الدخول والخروج .

وقد اكتشفت أننى خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج ..

فلم يسألنا أحـد عن جواز السفر .. لافى مطار القاهرة ولا فى مطار الكونغو .. ومعنى ذلك اننا ـ رسميا ـ لم نخرج من مصر ولم ندخل الكونغو ..

ولكن ما الذى يمكن أن يحدث لو ـ بمحض الصدفة ـ ضبطتنا احدى الهيئات الطبية في مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضـد الكوليرا مثـلا والحمى الصـــفراء وغيرها من الامراض المتوطنة والوبائية ؟

وسألنا رجال الامم المتحـدة .. واقترحوا ان نأخذ سيارة ونذهب بها الى احدى المدن المجاورة .. ولم نعرف اسم المدينة. وانما قيل لنا أن السائق يعرف وهذا يكفى .. وهناك سوف نجد طبيبا .. وعنده تعليمات لاجراء اللازم !

أى اننا موضع اهتمـــام وتعليمات واجراءات وانها ستنفذ جميعا . .

وفى السيارة لم يتكلم الســـائق الدولى كلمة واحـدة .. لا بالعربية ولا بالفرنسية .. هو ابتلع لســـانه ونحن أيضا ..

وحتى عنـدما نظرت الى مؤشر السرعة فوجدت انه تجاوز المائة والعشرين كيلو ابديت اعجابى بالسيارة وبنعومة الشـــارع المرصوف .. وكانت هــذه حقيقة لا مجاملة فيها ، فلم يرد بكلمة واحدة .. وكأنه توقع منى أن استمر فى الثناء عليه .. فاقترب منى قليلا لعلى ارفع صوتى على صوت الموتور ، ولكنى لم أفعل .. وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر الى الحقول .. والى الغابات .. وتوهمت اشكالا لحيوانات غريبة ..

وعرفت فيما بعد أن هذه الحيوانات التى رأيتها كانت بالفعل حيـوانات متوحشـــة ولكن الاوصـــاف التى أذكرها ليست صحيحة .. فهى مختلفة تماما عما رأيتها .. واندهشت قائلا : وهل أنا مسطول ؟

فأجاب الطبيب الكونغولى : نعم ..
سألته : ماذا تقصد ؟
قال : من هذه البقع الصفراء على قميصك .
قلت : وما هذه البقع ؟

قال : انها فاكهة نأكلها باحتراس شديد وليس فى هذا الوقت من العام .. لانها لم تنضج بعد .. ولابد أن احـدا قد داعبكم بهذه الفاكهة ..

وضحك . ولم أضحك . وشعرب بدوخة مفاجئـــة .. اما بسبب الحقنة التى غرســها فى جلدى .. أو بسبب المشرط الذى أسال دمى ..

وتذكرت ان فتيات الكونغو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار .. وظننا ــ بحسن نية وغرور أكيد ــ أنه الاعجاب .. أو الحب من أول نظرة .. ولم تكن هذه الثمار فى طبق أو فى ثلاجة .. وانما كانت تتدلى من شجرة أدخلت فروعهـــا الى داخل المطعم .. ومن الغريب ان هذه الفاكهة الصفراء لذيذة .. وان كانت لاسـعة الطعم .. كأنها نوع من الجوافة المطعمـــة بالمـــانجو والمرشوش عليها القليل من المستاردة والشطة .. لذيذة ..

وهى تصيب من يأكل الكثير منها بشىء من الهلوسة ..

وبدأنا نراجع تصرفاتنا .. واخذنا نضحك .. ولم يتسع وقتنا لنسأل ان كان هذا الضحك الشديد الذى اسال عيوننا هو من آثار هذه الفاكهة .. أو أنه شىء طبيعى ..

وحاول بعضنا أن يعثر على هذه الشجرة أو أية شجرة مماثلة لها .. ولكنه لم يجد ..

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشـــهادة الدولية التى صرفها لنا الطبيب الكونغولى .. والا حجزونا فى المحجر الصحى فى مطار القاهرة اسبوعين آخرين .. وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء .. والحقيقة اننى لم أكن فى حاجة الى هذه الشهادة الدولية فعندى شهادة صالحة للخمس السنوات القادمة .. ولكن لم يتسع وقتى لاحضارها معى ..

وبسرعة عدنا .. وبسرعة نزلنا من السيارة . ووجـدنا الطائرة فى انتظارنا ..

ولاول مرة أرى الطائرة بوضوح .. انها جراج واسع .. ارضها معدنية وجدرانها كذلك .. وقدأصبحت نظيفة وشديدة البرودة .. واحسست كأننى عريان ملط .. وان ملابسى لاتحمينى من أى شىء .. المقاعد المعدنية تلسعنى كالجلوس على البلاط .. جدار الطائرة كالمقاعد بارد .. ومن قلب الطائرة يرتفع سلم الى كابينة القائد .. ومن كابينة القائد أرى بعض الوجوه .. انهم أكثر من طيـــار .. وفى الكابينـــة حركة غير عادية . . لقد تحركت مراوح الطائرة .. واحدة بعد واحدة .. وزمجرت الطائرة وبدون أية تعليمات تحركت

الطائرة الكبيرة جدا .. ومشت على الارض الخضراء .. وارتفعت فى الهواء .. الى أين ؟ لاأحد يعرف بالضبط .. لم يدر بيننا أى كلام .

ولا تزال الحركة غير عادية فى كابينة القائد ..

والآن يمكننى أن أصف هذه الحركة .. انهم يتناولون طعام الافطار .. يفتحون علبا كبيرة .. العلب من الصفيح .. ويبدو انها مثلجة وفى أيديهم سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة .. ومعهم فطائر من التفاح .. وكل شيء عادى جدا .. فهذه الطائرة بيتهم المتحرك .. ولا علاقة لهم بالركاب سواء كانوا مدنيين أو عسكريين .. انهم جماعة من الامريكان فى مهمة دولية ..

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذى جعلنا نشعر بالبرودة أكثر .. وحاولنا أن نغطى هذا الموقف بالكلام .. ولكن من الذى يسمع منا .. ان صوت الطائرة صارخ .. ثم ماهذا الكلام الذى يمكن أن يدور بيننا .. فكنا نضحك بلا سبب .. أو كنا نضحك للسبب الذى عرفناه أخيرا ..

ونهضت وتسللت الى الكابينة : صباح الخير .. ورد الكابتن : صباح الخير .. بيرة .

قلت : شاى ..
قال : حالا ..
قلت : شكرا .. ولزملائى أيضا ..
قال : حالا ..
وفعلا جاء الشاى الساخن .. وبهذه السهولة ..

اذن من أين جاءت هذه الصعوبة التى نتعذب بها .. الشاى سهل .. والشراب سهل .. والطعام سهل ..

ولكن أحدا منا لم يحاول ولم يطلب .. ان كلّ شيء موجود وراء هذه الابواب وهذه الستائر .. وفوق هذه السلالم .. ووراء هذه الوجوه .. ولكننا لم نحاول أن ندق بابا وان نصعد سلما وان نقول صباح الخير وان ننتظر الرد ..

وقال : سندوتش ..
قلت : ان كان ممكنا ..
قال : ممكن ..
قلت : ولزملائى أيضا ..
قال : ولصديقاتكم .. ان كانت لكم ..

وضحكت . وشجعني الشاي والسندوتش والدفء الموجود في الكابينة والالفة الانسانية التي تتم بسرعة بين الناس دون ان اعرف من هو .. ولا هو يعرف من أنا .. انا في مهمـــة وهـــو في مهمة . ونحن الاثنين في طائرة واحدة فوق الكونغو .. ونتفاهم بلغةدولية .. لغة الذوق والمجاملة .. لغة مفرداتها الابتسامة والكلام والشاي والخبز .. وتطرقت في الكلام ورويت له قصة فاكهة الهلوسة .. وضحك .. وتمنى لو أنه ذاقها .. واخرج ورقة وقلما ليكتب اسم الفاكهة .. ثم أعاد القلم والورقة الى مكانهما عندما عرف انني لا أعرف .. ولكن الاسف كان واضحا على وجهه . . ولكن لحسن الحظ لم يصل الى درجة أن يسحبمني الشاي والسندوتش . .

وأشار من نافذة الطائرة الى الارض .. وقال : هـــذه بحيرة فكتوريا .. طبعا !

من هنا ينبع نهر النيل العظيم ..

ليس شكل البحيرة واضحا . ولكن الماء لونه أزرق تركوازى .. وتوجد زوارق صغيرة .. أو حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطىء .. هذه الحيوانات هي وحيد القرن .. السيد قشطة .. عددها كثير .. وان كانت تنقرض هذه الايام .. وكذلك التماسيح .. فالمفروض أن يضع التمساح بيضه على الشاطىء وقتا طويلا .. ولكن كثرة الحركة السياحية في جانب من هذه البحيرة يجعـــل التمساح يهرب الى الماء ويترك البيض فتجيء بعض الطيـــور أو الحيوانات المفترسة وتأكل البيض ..

وسألني كابتن الطائرة ان كانت القعدة مريحة .. وأشار الى حيث كنا نجلس فقلت : عذاب في الذهاب وعذاب في الاياب ! .

ولم يهتم .. فهو كرجل عسكرى .. قد اعتاد على هذه المقاعد الموجعة لكل خلية في الجسم .. وأشار الى زميل عجوز وقال : ادوارد ..

وجاء العجوز ادوارد انه يشبه العمدة في أفلام رعاة البقر .. طويل القوام .. مقطب الوجه .. اذا تكلم اهتز .. وتمايل .. ولكن يده دائما قريبة من مسدسه .. ولم تكن على صدره النجمة المعروفة .. وجاء ادوارد ونظر الينا .. كأنه يرانا لاول مرة ..

وسأله : التكييف متعطل ..

ورد عليه ادوارد ببرود أشد من ارضية وسقف الطائرة : انه لا يعمل ..

وهنا اعتذر الكابتن واصلح هو جهاز التكييف ؟

وفى لحظة تحولت الطائرة الى غرفة دافئة مريحة للاعصاب .. وأصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدات والالحفة .. ونامت كل خلية حية فى جسمى .. وهتفنا جميعا لادوارد : الله يخرب بيت أبوك يا عمدة ..

وسألنى : ماذا تقولون ..

فقلت : النشيد القومى ..

فقد كان فى استطاعة ادوارد هذا أن يشغل التكييف منذ ساعات ويرحمنا من البرد الشديد الذى دغدغ عيوننا ودشدش بقية الاعضاء ..

أما أنا فعندى مقياس للبرد لا يخطىء : اننى اشعر به فى الجانب الايمن من بطنى ..

واختفى احساسى بالجانب الايمن من بطنى .. واحساسى ببطنى .. اذن فالجو دافىء والسماء صحو .. والشمس مشرقة .. وما تزال بحيرة فكتوريا تحتنا .. وما نزال فى المناطق الشمالية من الكونغو .. والطائرة متجهة الى السودان ..

ولكن الحالة المعنوية أحسن ..

والكلام الذى دار بيننا هو من وحى الدفء .. ومن وحى الشاى والسندوتش .. ودفء العلاقات الانسانية التى تولدت بسرعة .. حتى ادوارد العجوز ما يزال جالسا عند أعلى السلم وقد وضع ساقا على ساق واستعاد ذكريات حزينة .. واضح انها حزينة .. وراح يغرقها فى اكواب البيرة الباردة .. ويرفع صوته بالغناء .. انه مبسوط ..

وعندما اهتزت الطائرة فجأة .. هز رأسه وأشار بيده .. أشارة لم نفهمها .. وبدأت الطائرة تهبط .. ومن النافذة بدأت الارض الخضراء تقترب .. والغابات الكثيفة فى كل مكان .. وهبطت الطائرة .. ولكن المطار مختلف .. فله ممرات .. وهناك برج .. ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب الخلفى .. ونزلنا من نفس المكان الذى نزلت منه عربات الجيش والذخيرة المصرية .. وأشار الينا

ادوارد أن ننزل .. وقال لنا : الا اذا كان أحد منكم يريد أن يبيت هنا ..

ولم يكن عندنا كلام نقوله ..

ولكن غلبت علينا الرغبة فى أن نعرف أين نحن .. وان نتفرج واذا لم نجد مكانا عدنا الى الطائرة .. أما هو فبحكم العادة أخرج بطانية .. أو مرتبة .. ودخل فيها .. وشد السوسته .. ونام فى جانب من الطائرة .. ويبـــدو انه نام بالفعل .. وفى دقائق .. ونزلنا من الطـــائرة .. ووجدنا البوفيه .. البوفيه نظيف .. والجو نفسه منعش .. والمكان مرتفع .. والجرسونات يمشون حفاة ولكنهم يلبسون طربوشا فاقع الاحمرار .. والزر الى الامام .. والضحك على وجوههم جاهز .. واية اشارة اليهم تجعلهم يضحكون أكثر .. انهم كأبناء الفلبين وأندونيسيا يضحكون على الفاضى وعلى المليان .. وليسوا كأبناء اليـــابان الذين يضحكون بحســـاب : فهم يضـــحكون ليعطوا لانفسهم ولغيرهم فرصة للتفكير فيما بعد ذلك .. اى فيما بعد الضحك ..

فالضحك فى اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التى جاءت فى هذا السطر .. انها مسافة وبعدها يجىء الكلام ..

وهذا البوفيه مشجع .. والضحك مشجع أكثر .. والحالة المعنوية عالية .. ولا أوجاع فى البطن ولا فى الرأس .. وقلت لواحد منهم : هل نحن فى كينيا ؟

والآن اريد أن أصور ما الذى حدث فى البوفيه .. أريدك أن تتصور ان قنبلة من قنـــابل الغاز التى تبعث على الضحك وتسيل الدموع قد انفجرت فى كل واحد من الجرسونات السبعة الموجودين فى البوفيه .. وان هذه القنبلة متعددة المراحل .. وان مرحلتها الاولى قد انفجرت فى العينـــين .. والثانية فى الفم .. والثالثة فى البطن .. والرابعة قد انفجرت فى البنطلون .. وان هذه القنبلة اسمها : هل نحن فى كينيا ؟ ..

لقد تعالت أصوات الجرسونات بالضحك والدموع .. والتساقط على الأرض ..

وبدأ الزملاء يسألوننى عن النكتة التى قلتها .. وكررت ماقلت .. واندهشوا هم أيضا .. وبعد ان زال أثر القنابل المضحكة اقترب واحد منهم وقدعاوده العبوس الذى يعقب الانفعال الشديد وقال : نحن فى أوغنده !

ولم اشرح له اختلاط أوغنده وكينيا فى رأسى .. فلا أحد قال لنا أين هبطنا .. وحدود أوغنده وكينيا متجاورة .. ولا أعرف ان وصف اوغنده بانها كينيا يبعث على الضحك . . ولكن ما داموا قد ضحكوا ، فلا بد أن هذا مضـــحك .. تماما كما تذهب الى سوهاج وتقول لهم : مش دى اسيوط !

ولا بد أن أهل أوغنده وجدوا فى جهلى فرصة سعيدة لشعورهم بالتعالى على رجل ابيض جاهل .. ومن المؤكد اننى أســعدتهم ورددت لهم اعتبارهم ، ولو كنت أعرف أشياء أخرى تســعدهم لفعلت ، فأن الشـــاى الذى قدموه قد انعشنى واسـعدنى .. وشربت كوبا وراء كوب .. وفى كل مرة امتدح الشاى الانجليزى .. بل اننى تطوعت ودخلت البوفيه وصنعت الشاى على الطريقة التى تعلمتها فى جزيرة سيلان .. ومن خبراء الشاى .. وما زلت حتى اليوم أسير هذه العادة ..

ولما سالونى كيف تعلمت الشاى ..

وجدت الفرصة التى أحولهم فيها الى تلامذة .. واسترد فيها مكانتى كواحد لديه الكثير من المعرفة فى هـذه الصناعة التى ياكلون منها العيش .. ولكى أؤكد لهم ان الخلط بين كينيا وأوغندا من الجو ممكن جدا .. وكثيرا ما أسقطت الطائرات فى الحرب قنابل على اهداف خاطئة .. قلت : تعلمتها فى شركات الشاى فى مدينة كولمبو بسيلان .. وفى مقاطعة دار جيلنج فى الهند ..

ورويت لهم كيف ان احدى شركات الشاى فى سيلان قد طالبت منى أن أعطيها عنوان عشرة من أصدقائى فى جميع أنحاء العالم لكى يبعثوا لهم بهدايا من الشاى الفاخر الذى لا يباع فى الاسواق .. وانى أعطيتهم عناوين عشرة من الاصدقاء .. واننى عندما عدت الى القاهرة وجدت الشركة قد أرسلت لكل واحـــد منهم كيلو جرامين من الشاى الطـــويل المعطر .. وقيل لى انه شراب الملكة اليزابيث المفضــــل .. وكم كان حزنى عميقا .. وكم كانت فرحة أبناء أوغنده هائلة .. عنـــــدما قلت لهم اننى نسيت أن أعطى للشركة عنوانى ! ..

ولكن هذه الشركة عندما علمت بهـذا المقلب الذى أوقعت نفسى فيه أرسلت لى كمية أخرى من الشاى المعطر ..

ولا أعرف ما الذى منع هؤلاء الاوغنديين أن يطلبوا منى ان أعمل معهم فى البوفيه .. ولا داعى للعودة الى القاهرة ..

وسألت جادا : أين نحن ؟

قالوا : أنت فى أوغنده .. وهذه مدينة عنتيب ..

لا أعرف الكثير عن هذه المدينة .. ولو تركنى وحدى هـذا الجرسون الذى أعجب ببراعتى فى صناعة الشاى لعصرت ذاكرتى بحثا عن دلالة هذه المدينة .. الآن فقط استطيع ان أجد عندى بعض المعلومات .. فهذه المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما .. فقد كانت العاصمة القديمة لاوغندا .. أما العاصمة الآن فهى كمبالا التى يعرفها عشاق كرة القدم .. فقد أجريت فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الافريقية .. والجيوش المصرية أيام الخديو اسماعيل قد رفعت العلم المصرى على هذه المدينة وعلى غيرها .. ويوجد اثر للمصريين فى أماكن مختلفة من البلاد ..

ويمكننى أن أفسر سبب الضحك الغريب الذى كان تعليقا على اسمى عندما سألنى أحد الجرسونات عن اسمى ، ونحن منهمكون فى صناعة الشاى ، فقال : آه . أمين باشا ؟!

وسألته : كم عمرك ..

قال : سبعون عاما ..

وكان يبدو فى الاربعين .. وسيظل يبدو كذلك ما دام يضحك طول الوقت ويغسل همومه أولا بأول ..

وأمين باشا هذا الذى أضحكه .. هو أمين باشا محمد .. وهو الطبيب الالمانى الذى عينه غوردون باشا حاكما على المحـافظة الاستوائية بأمر الخديو اسماعيل يوم كان العلم المصرى يرفرف على هذه البلاد .. وأمين باشا هذا كان طبيبا ممتازا .. وكان يتقن عشر لغات وعشرات من اللهجات الافريقية .. وقد اشتغل فترة طويلة فى قصر السلطان بتركيا .. ولذلك اتخذ لنفسه هذا الاسم التركى .. وان كان لم يعتنق الاسـلام ، واسمه الحقيقى هو ادوارد اشنتسلر وقد أوفدته الحكومة الالمانية ليوسع حدودها الى ما وراء تنجانيقا التى كانت مستعمرة المانية .. وحاول كثيرا .. ولكنه سقط فى ايدى تجار الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره . ولم يترك كتبا عن مغامراته ، وان كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة يتحدث فيها عن هيامه بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة .. ويقال انه تزوج فتاة من مدينة عنتيب ..

وسألت الجرسون الذى أضحكه اسمى : هل تعرف أمين باشا جيدا ..

أعدت عليه السؤال عندما لم ألاحظ ما يدل على معرفته لهذا الرجل فقال : أعرفه .. أنا اسمى امين باشا محمد .

قلت : **مسلم ..**
قال : أولادى فقط ..
قلت : **وانت ؟ ..**
قال : مسيحى ..
قلت : **وزوجتك ..**
قال : مسيحية ..
قلت : **وكيف حدث ذلك ؟**
قال : يحدث هذا كثيرا ..

ولم أجد عنده تفسيرا .. ولكن يبدو أن هذا يحدث كثيرا .. أن يكون الاب مسيحيا وأولاده مسلمون ، ويحدث كثيرا أن يحتاج الانسان الى من يشرح له ، ثم لا يجده .. ويسكت دون أن يفهم ! ..

الحمد لله .. شربت وأكلت وضحكت وأضحكت .. وجاءالليل بسرعة ليصنع لنا مشكلة جديدة : أين ننام !

وقبل أن نفكر فى النوم يجب أن ندفع ثمن الشاى .. وثمن السندوتش والحلوى التى جاءت فى حماية الشاى وبسببه ..

وتكرر الضحك بنفس القوة عندما أخرجت من جيبى بعض الفرنكات الكونغونية .. وحاولت أن أدفع .. وعرفت بسرعة أن هذه الفرنكات تشبه « بونات » بوفيه محطة مصر .. وأنا أشبه من يأخذ هذه البونات ويعطيها لجرسون فى محطةروما .. مضحكة .. وأنا مضحك ! ..

وكانت فرصة لامين باشا أن يصر على أن يكون الحساب عليه هو ..

وشكرنا أمين باشا وتمنينا له طول العمر والصحة وأن يظل بيته عامرا ..

وقبل أن نفكر فى أين نذهب .. هل نتفرج على المدينة .. أو هل ننام مبكرا فى الطائرة .. وما دامت الفلوس الكونغولية لا تنفع فما

الذى نفعله .. ظهـــر لنا رجل انجليزى .. يبدو انه من رجال المطار ..

وسألنا : من مصر ..

قلت : نعم ؟
قال : كم يوما تبقون هنا ..
قلنا : حتى الصباح ..
قال : ما مشروعاتكم ؟ ..
قلنا : أولا نبحث عن مكان ننام فيه ..
قال : وثانيا ؟ ..
قلنا : نتفرج على المدينة ..
قال هو فى رقة جادة : اذن نبدأ بثانيا ؟ ..

ومشينا معه ووراءه دون أن نسأله من هو وما شأنه .. ولكن لم يكن من الصعب أن نعرف انه أحد رجال السلطة جاء لمراقبتنا بصورة رقيقة ، وأخذنا فى سيارته ، وذهبناجميعا الى أحد محلات البقالة .. المحل هندى .. والهنودكثيرون هنا وفى كل المستعمرات البريطانية الاخرى .. وشربنا شـايا .. وفى المحل قابلنا عددا من المواطنين وسألونا عن بلدنا .. وماذا نصنع .. ومن الغريب أنهم سألونا عن بعض الصحف المصرية .. وبعض الكتاب المصريين .. وعن موضـوعات محددة نشرتها الصحف المصرية انهم من طلبـة الجامعة الازهرية !

وانصرفنا .. فى سيارة الضابط الانجليزى ... واتجه بنا الى أحد الفنادق .. وأوصلنا الى باب الفندق .. وتأكد من دخولنا ومن وقوفنا أمام صاحبة الفنـدق . . ومن أننا كتبنا استمارات الاقامة وسجلنا أسماءنا وأرقام جوازات السفر .. وودعنا الرجل وشكرناه .. ووعدنا بالعودة فى الصباح ليرافقنا الى الطائرة ..

والفندق من طابقين .. وككل الفنادق الاســتوائية .. ملىء بالاشجار .. وعلى النوافذ ستائر من السلك ضـد الحشرات والبعوض بصفة خاصة .. وفى كل غرفة جهازتكييف..وفى الطريق الى غرفتنا مررنا بالمطعم .. ثم حبسنا أصواتنا وانفاسنا عندما وجدنا المطعم مليئا بالناس ولكن أحدا لا يسمع لهم صوتا .. وهم جميعا بالملابس الكاملة ..الرجال بالبدل والكرافته .. والسيدات بالسواريه .. ونحن قد ارتدينـا مايشبه « العفريته » .. والهدوء والدفء والانوار الناعســة والاطعمة الشهية والاكواب الزجاجية

الطويلة .. والالوان على الجدران والمقاعد والستائر والفساتين والليل والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حراما على كل من عنده احساس أو ذكريات ..

ولكن لا وقت للذكريات ..

ويظهر أنه لا مفر من الذكريات المؤلمة على الاقل .. فعندما تأملت وجه السيدة صاحبة الفندق .. كان الوجه مألوفا .. لا اعرفها .. ولكن أعرف مثل هذه الملامح .. وسألتها : من أين ؟

قالت : من القدس ..
قلت : العربية ؟
قالت : لا ..
قلت : .. وتتكلمين العربية طبعا ؟ ..
قالت : طبعا ..
قلت : بايخة ! ..

ولم أقلها بصوت مرتفع . . فقد علق بعض الزملاء على ملامحها وعرفوها .. وعلى انفها وعلى شعرها المنكوش.وعلى التكشيرة التى تزداد لحظة بعد لحظة .. وعلى انها نبهت الى ضرورة التزام الهدوء .. الذى التزمناه بالفعل ! ..

وفى الغرفة وجد كل منا ما يحتاج اليه ..

وجدنا سلالا من الفاكهة .. فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها .. وأهم من هذا كله وجدنا الدش .. وأهم من الدش وجدنا السرير .. وأهم من السرير وجدنا النوم ..

وكان الصباح جميلا ..

كل شىء هادىء .. الغرفة نظيفة .. الالوان بيضاء السرير والغطاء .. والجدران .. والاكواب .. والألوان كلها خضراء ووردية .. ومن النافذة بدت الحديقة فاتنة .. الاشجار مليئة غنية الأوراق والثمار .. والطيور ثرثارة ولكنها متنوعة .. والفندق يشرف على المدينة .. ويتوارى خلف الاشجار حتى لا يبدو مشرفا بالفعل ! ..

ودق جرس التليفون فى الغرفة .. ولم تمتد اليه يد .. فنحن لا نتوقع شيئا ولا أحدا .. ونحن نعرف مقدما ما سوف يحدث .. وان كنا نتمنى أن يحدث شىء يجعلنا نبقى هنا يوما أو يومين ..

وفى التليفون سمعت ان الضابط الانجليزى فى انتظارنا .. آنه ضابط أمن نشيط .. انه يريد ان يطمئن على أننا سوف نسافر اليوم ، ولم يقل فى التليفون انه يتعجل أحدا .. وانما فقط يريد ان يقول لنا أنه موجود ..

وكان فى نية أحد الحاضرين أن يسأل عن فول مدمس . . ولكنه تراجع عندماتذكر هذه السيدة صاحبةالفندق .. واكتفى بالشاى والبيض والزبدة واللبن ..

وفى هذا الجو الاستوائى قررت أن أتناول افطارا من نوع خاص .. يذكرنى بأيام الهند وسيلان واندونيسيا . . فطلبت بيضا بالطماطم والفلفل الاخضر والاحمر..وطلبت كوبا من عصيرالطماطم بالشطة .. ثم طلبت شرائح من الاناناس .. وشرائح من البابايا .. وبعض البندق الهندى .. وكوبين من الشاىالانجليزى «المعنبر» ولا بد من اضافة هذه الصفة لان لونه أحمر ذهبى ورائحته كرائحة العنبر الوردى ..

ووجدت فى هذا الافطار تعويضا سخيا عن كل ما حدث فى الاربع والعشرين ساعة الماضية .. ورضيت عن التعويض ، واسترحت نفسا وجسما .. وكان هذا واضحا تماما فى مصافحتى للضابط الانجليزى الذى بدا أكثر انتعاشا منا جميعا .. وكان من الواجب ان أسأله كيف نام وأين وماذا أفطر صباحا لعلنا نعرف سر هذه الحيوية والشباب واليقظة . ولم أجد مبررا لذلك فالذى أشعر به ارضانى واشبعنى وأمدنى بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعود الى القاهرة ..

ونقلتنا السيارة الى المطار .. والسيارة هى التى نقلتنا وليس الضابط .. فلم نشعر به .. لانه لم ينطق بكلمة واحدة .. كأنه يتوقع ان نقول شيئا .. أو كأنه يدخر قواه لينفقها فى عمله .. أما نحن ففى الطريق الى عمله .. وعندما دخلت السيارة أرض المطار رأينا الطائرة .. وقدوقف عندبابها الخلفى ذلكالعجوز ادوارد وواضح انه ينتظرنا .. تماما كما يفتح بقال ريفى دكانه وينتظر الزبائن الذين لا يفتحون النفس الى العمل كأن يشتروا بقرش شاى وبقرشين سكر .. وأشياء تافهة أخرى ..

وصافحنى الضابط الانجليزى وشكرناه وتقبل منا الشكرالذى يتوقعه ويستحقه .. ايا كان السبب .. ودخلنا الطائرة . واقفل الباب .. ودارت المحركات . وأسندنا الظهور الدافئة الى الجدران

الدافئة . ومددنا أقدامنا . وتعالت أصواتنا بالضحك وبالكلام . ولم نلتفت الى الكابتن أو العجـــوز ادوارد ٠٠ ولا نعرف كيف ان المسافة بين عنتيب والقاهرة كانت قصيرة الى هذه الدرجة رغم أنها استغرقت سبع ساعات ..

ومن النافذة رأينا القاهرة. وهبطت الطائرة . وصافحنا الكابتن وزميله والعجوز ادوارد . ونزلنا في مكان بعيـد من المطار . ولم تكن هناك أية سيارة تنقلنا من مكان الطائرة الى المطار ٠٠ وكانت المســافة طويلة ٠٠

٠٠ وفي وضح النهار ظهر الاعياء علينا ٠٠ وعلى ملابسنا المتكسرة المليئة بالبقع .. وعلى أحذيتنا التى تلطخت بالطين .. ودخلنـا المطار وسألونا : من أين ؟

قلت : من الكونغو .

أما كيف خرجنا ٠٠ وكيف نزلنا وكيف صعدنا وكيف عدنا ٠٠ فالجواب : ان كل شيء تم بالليل وبسرعة ٠٠ بالليل هنا ٠٠ وبسرعة هناك ٠٠ حيث لا حكومة ٠٠ لا جيش ولا بوليس ٠٠ وحيث البلاد مفتوحة كالسماء .. لا أحـــد يعرف الداخل ولا الخارج ولا أحد يهمه أحـد ٠٠

أما شهادة التطعيم والحقن فهى التى فتحت البـاب الخارجى الى البيت ٠٠ بينما ظل بعض الزملاء فى المحجر الصحى أسـبوعين آخرين ٠٠ فلم يتمكنوا من الحصول على شهادات دولية ٠٠ أى أنهم سافروا الى الكونغو وعادوا فى ثلاثة أيام ٠٠ ولكنهم لن يسافروا من مطار القاهرة الى القاهرة نفسها الا بعد ١٤ يوما !

وفى الطريق الى القاهرة سألنى أحد الزملاء : نفسك فى ايه دلوقت ؟

قلت : بصراحة واخلاص ٠٠ نفسى أسافر الى الكونغو ٠٠

وكمن سمع ـ نكتة ـ بايخة قال الزميل : أنا حرمت أســافر معاك ٠٠ انت رحلاتك انتحارية ! .

ليست انتحارية ٠٠ ولكن أريد ان أعرف ان أفهم ٠٠ ولم يتسع وقتى لكى أفكر وأدبر ٠٠ وأتدبر ٠٠ فكأننا ذهبنا الى زيارة اناس قد دخلوا الفراش وشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت عشرات من فناجين القهوة السادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار ٠٠ وكل الذى دار بيننا هو اننا تجاذبنا الغطاء ٠٠ أنا أسحبه عنهم وهم يشدونه ٠٠ وغلبنى التعب وغلبهم النوم ٠٠

٠٠٠ ثم غلبنا جميعا ..!

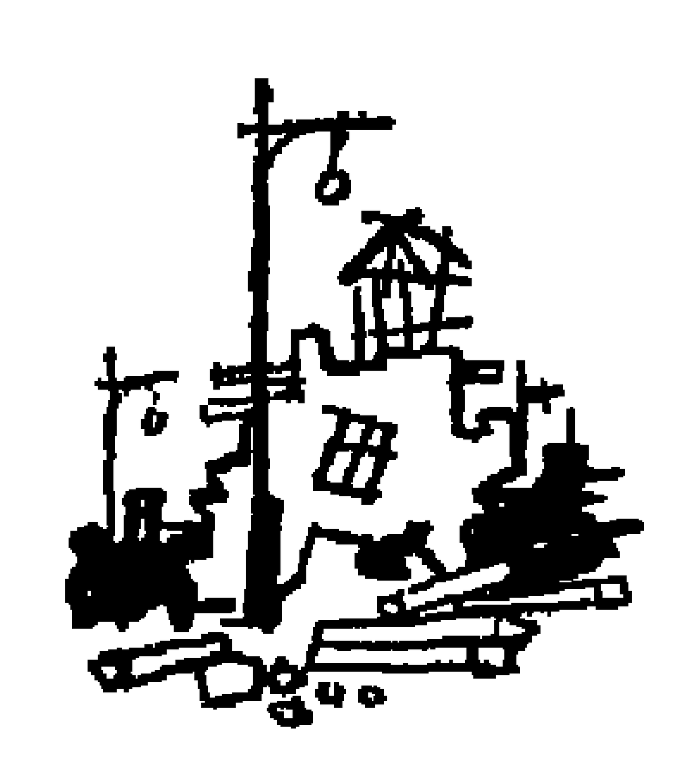
كانت فوق الجميع ••

أصبحت تحت الجميع ••

•• وظلت عملاقا دائما !



صنع في ألمانيا!



أكبر غلطة لغوية !

كان ذلك فى الحفلة التى أقامها مصدرو الارز فى مدينة همبورج .. جاء دورى فى الكلام . فقلت : اننى قد رأيت المانيا ١٥ مرة .. وفى كل مرة أجد تغيرا عجيبا .. الشوارع المنهارة المظلمة تحولت الى فترينات باهرة ..والعمارات كأنها اختفت تحت الارض بسبب الغارات الجوية .. ثم اعيدت الى وجه الارض .. ان الالمان يطبقون شعار دافنشى الذى قال : اننى لا أصنع التماثيل اننى أكشف عنها الحجر فقط .. انها معجزة ؟

وواضح من الذى قلته اننى معجب بالعبقرية الصناعية ، والمعمارية الالمانية ..

ولكن الالمان لم يفهموا هذا المعنى الذى قصدته .. فقد نهض واحد منهم غاضبا ساخطا ليقول : انها ليست معجزة ياسيدى .. ان المنديل الذى كنت امسح به عينى كنت أمسح به أنفى أيضا .. اننى حملت ابنى وزوجتى على ظهرى من برلين حتى وصلت الى هذه المدينة ..

وجلس .. ولم أفهم شيئا ..

وانتهت الحفلة . ولم أتمكن من أن استوضحه .. ولا أعرف أين المكان الذى أوجعته من جسمه أو من نفسه .. اننى لم أتعرض الى قفاه أو ظهره . . ولم أقل انه كالحصان يستطيع أن يجر عربة .. وان يحمل زوجته وابنته على قفاه .. ولم أقل أنه من الواجب أن يفعل الانسان ذلك ..

وسألت عن سبب غضب هذا الرجل من اعجابى بالشعب الألمانى ونشاطه الغريب . وكان الاعتراض على استخدامى لكلمة « معجزة » . أنا استخدمت الكلمة بحسن نية .. وهو قد فهم شيئا آخر . أما المعنى الذى أقصده فان الذى حدث فى المانيا شىء لا يصدقه العقل ..

اى شيء فوق العقل العادى .. اى شيء يعجز عنه أى انسان عادى .. او أى شعب عادى !

أما الذى فهمه هو — وهو أحدأحفادالفلاسفةالالمان كانتوهيجل ونيتشه — فهو أن المعجزة معناها ان السماء هى التى تدخلت فى كل شيء . وان الشعب الالمانى لم يفعل أى شيء . وقد يكون من المعانى التى خطرت على باله أن الامريكان — أى قوة خارجيـــة بفلوسهم وصناعتهم — هم الذين انقذوا الشعب الالمانى . .

والمعنى الاول لم يخطر لى على بال . . بينما المعنى الثانى وهو ممكن ، فلم يخطر لى أيضا على بال . وانما الذى احسست به هو هذا الفارق بين المــانيا بخرائبها فى سنة ١٩٤٩ والمانيا التى رأيتها بعد ذلك فى سنة ١٩٦٧ . .

وهذا الموقف يضعنى فى المكان المناسب لفهم أوضح وأسلم للالمان .. فهمماديون. مكتئبون. . أو لكى أكون عادلا : أقول ان طريقتهم فى الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . وليس من الضرورى ان يتفق العالم كله من أوله لآخره معنا لكى نفهمــه — أو لكى أفهمه — على النحو الذى يريحنى ! . .

وهذا يجعل المسافر الى المانيا أو الذى يعيش فيها أن يسأل نفسه من هم هؤلاء الناس ؟ ماهو تعريف المواطن الالمانى . ربما كان معناه : النظام والطاعة والهمجية والقســوة والطاقة على العمــل والصبر والغلظة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والاندفاع والغموض. .

واذا قارنت الالمــانى بالفرنسى وجدت هذا الاختلاف الهائل بين شعبين تجاورا مئات السنين .. ولكن ماتزال المسافة بينهما أبعد بزمان جدا مما بين باريس وبون . . فالرجل الفرنسى — من وجهة نظر الالمان — : مبهدل فى مظهره ولكنه ذكى .. لاصبر له على العمل ولكن اذا عمــل كان فى غاية الكفاءة .. ولديه قدرة عقلية فذة .. وصحيح ان الفرنسى ليس عاطفيــا كالالمــانى ، ولكنــه عاشق من الدرجة الاولى !

أما رأى الفرنسى فى نفسه فهو انه أسمى وأكثر انسانية ، ولكنه ينظر بحسرة الى الانجـــازات العظيمــــــة التى حققها الالمان فى كل العصور !

تصادف ان ذهبت الى مدينة ميونخ من عشرين عاما ، وكانت هذه

اول زيارة لالمانيا .. وكانت المدينة ماتزال محطمة .. ولكن ظهرت العمارات الجديدة والشـــوارع المضيئة .. ثم كانت هناك محطة السكك الحـديدية الضخمة .. ووجدت غرفة فى بنسيون اسمه : بنسيون « الشاعر جيته » .. وأعجبنى الاسم . ولم تكن هناك أية صلة بين اسم الشاعر والبنسيون .. تماما كما لاتوجد أية صلة بين لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان ..

والبنسيون متواضع . ولكن من المؤكد أنه نظيف ..

وعرفت فى أول ساعة من دخولى البنسيون أنه لا توجد حنفيات للماء .. فالعمارات منهارة .. ولم يتم بعد اصلاح وابور الماء .. اذن لابد أن أغســل وجهى فى الطشت .. فهناك طشت وابريق . وصاحبة البنسيون فى انتظار اشارة منى . . وجاءت وغسلت وجهى .. وغسلت قدمى .. وشكرتها .. ولم تعتذر عن الطشت والابريق .. فمفروض أن عنـــدى نظرا .. فالبلد مهـدمة .. وهذا هو احسن ما تستطيع ..

وكان يسكن فى غرفة مجاورة شاب فرنسى . وأثناء الافطار تعارفنا وتحدثنا .. وصارحنى بالسبب الحقيقى الذى جعله يرفض استخدام الطشت والابريق .. فقــال : اننــا تجــاوزنا هــذه المرحلة من مئات السنين ..

ولم افهم . وسألته : ماذا تقصد ؟

فقال : ان منظر الطشت يجعلنى أعود الى أيام الامبراطور نابليون الثالث .. وتلك أيام لا أحبها !

بعبارة أخرى لا يعجبه الطشت والابريق ..

وأنا لايعجبنى ولكن ماالذى يمكن أن أصنعه .. ان البنسيون على قدر فلوسى وفلوسه أيضا . ثم ان الناس هنا معذورون فى ذلك الوقت .. ثم انهم لايقلون حضـــارة عن الفرنسيين . . ولكنه فرنسى يعيش فى المانيا !

ولا هو أحب البنسيون ولا صاحبة البنسيون أحبت هذا الشباب .. ولا كل الفرنسيين !

وعندما سقطت المانيا سنة ١٩٤٥ فوجىء الماريشال الالمانى كايتل أثناء توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع على التسليم .. فقال :

وفرنسا أيضا ؟

يقصد وفرنسا التى هزمها الالمان سنة ١٩٤٠ فانتهت كدولة كبرى .. ان هذا الموقف المهين لالمانيا ، لم ينسه الالمان .. ولم ينسه الفرنسيون أيضا !

ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون أن تخفى شعورها .. فأشارت الى ذلك ..

وكان ذلك منذ وقت طويل .. ولكن الالمان الآن قد نسوا .. أو حاولوا نسيان ذلك ..

فألمانيا تغيرت معالمها ..

نهضت المدن والمصانع والشوارع . وامتلأت المحلات التجارية وانتقل العمال الى المانيا من كل الدول الاوروبية .. فالالمان عندهم كثير من الرؤوس وعدد قليل من الايدى .. فعندهم المهندسون والاسطوات والعمال المهرة ولكن ينقصهم العمال فقط .. الايدى فقط ..

ويظهر أن الالمان احسوا بأن جيل مابعد الحرب ليس صلبا ولا متماسكا كما يجب ولذلك اضافوا الى كل مصنع « مدرسة للتأهيل المهنى » .. واستخدموا فيها أساليب التدريب العنيف .. وبعض المدارس لجأت الى الضرب ..

أذكر أنى حضرت احدى ولائم الغداء فى مصانع شركة «ديماج».
وقد حضر عدد كبير من الخبراء والاداريين .. وعدد من الشبان المصريين الذين يتدربون على العمل هناك . سألت جارى : وكيف حال الشبان المصريين ؟

فأشار الى مهندس المانى آخر وطلب اليه أن يجيب . وهذه الحركة مألوفة فى ألمانيا .. فكل واحد يتحدث فى اختصاصه .. مهما كان هذا الاختصاص تافها . ونهض المهندس المشار اليه وقال : بصراحة أنا لا أحب هذا النوع من الشبان ..

يقصد الشبان المصريين .. وقال : انهم أكثر اهتماما بالفتيات الالمان .. اننا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن بشرط أن يكون فى أوقات فراغهم .. أنا لا أفهم ما معنى أن يحمل كل واحد منهم صورتها فى جيبه أو يضعها أمامه فى الورشة .. !

واحمرت وجوه الالمان . واحسست ان شيئا غريبا قد حدث أو

سوف يحدث .. وان هـذا المهندس الالمانى قد أحرجهم .. وانه ليس من اللائق أن يصارحنى حتى بكل الحقيقة ..

ودار همس وتجاورت رؤوس .. وسمعت المهندس الكبير يقول: اننى صريح .. أنا رجل عسكرى .. ولا أحب الميوعة فى الشبان .. من أى بلد!

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد شـابا يمضغ اللبان فأخرجها من فمه بالقوة وعاقبه ..

ولابد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت ألمانيـا على قدميهـا .. عملاقا صناعيا غنيا من جديد وطفـلا ذليلا فى وزارة الخارجية الامريكية .. ولا بد أن هذه الذلة هى التى جعلت المانيا تقف الى جوار اسرائيـل .. فى تسليحهـا وتمويلها .. وفقـدت بذلك أرضـا وملايين العرب من الذين كانوا يعجبون بالصنـاعة الالمانية قبل الحرب العالمية الثانية .. وكان يكفى أن يجد المواطن العربى عبارة: صنع فى ألمانيا .. ليشترى ودون تفكير ..

وعلى الرغم من أن المصانع الالمانية الكبرى قد فككت بعد الحرب وأرسلت الى دول الاحتـلال الاربع .. ومسحت الارض قبل ذلك بالقنابل، وقتل عشرة ملايين شاب ألمانى، فان هذه المصانع أعيدت من جديد .. وحولها البيوت .. والمعـاهد والمدارس والمتاجر .. وأصبح الالمان مثل أغنياء الحرب . فهم يقضون الصيف فى ايطاليا وفى أسبانيا وفى اليونان .. ثم هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم فى كل مكان فى العـالم .. بل انهم أقرضوا أمريكا وبريطانيـا ملايين الجنيهات الذهبية!

وهذا الوضع يضاعف من تعقيد الشخصية الالمانية ومن تناقضها

بل أن هناك أكثر من ألمانيا ..

فهناك ألمانيا الشرق .. وألمانيا الغرب ..

وهناك النمسا التى تتحدث الالمانية ..

وسويسرا التى تتحدث الالمانية ..

وكانت هناك دائما أقليـات ألمانية فى معظم الدول الأوربية .. فى تشيكوسلوفاكيا .. والمجر وبولندا .. وكانت هنـاك مدينة دانزج الحرة ..

وألمانيا نفسهـا دولة مفتوحة الحدود •• انتصرت وانهزمت •• واحتلت بلادا واحتلتهـا بلاد •• وحطمت وتحطمت •• فى كل الحروب الاوروبية •• فهى مصدر كل هذه القلاقل ••

ولذلك فالالمان هم الشعب الملعون فى كل أوروبا ••

والنـاس ينظرون الى الالمان فى البـلاد المجاورة على أنهم أناس متوحشون ••

أذكر اننى كنت فى أحد المحلات التجـارية فى مدينة انسبروك بالنمسا . ولاحظت أن البائعات يتغامزن. وعندما نظرت أستوضح اقتربت منى بائعة وقالت : انهم ألمان !

قالتها بشىء من الضيق ••

ولكن الالمان هم نصف تاريخ الموسيقى فى العـالم كله •• فهم أحفـاد فاجنر وباخ وبيتهوفن وشـوبرت وشـوبان واشتراوس وموتسارت ••

ولكن الالمان لم يتفوقوا فى الغناء والاوبرات ••

ولم يتفوقوا فى الرسم ولا النحت ••

وهناك مثل يقول أن الانسـان يتعثر فى الفلاسفة والموسيقيين فى الغابات والوديان الالمانية ••

والفلاسفة الالمان من كل الانواع : مثاليون جـدا مثل : هيجل وفخته .. ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز .. وانصار حياة مثل : نيتشة •• وأنصار موت مثل : هيدجر ••

بل اننى وجدت فى مدينة تبنجن بيتا صغيرا متواضعا جدا على نهر يتمسح فى الاحجار •• فى هذا البيت أقام ثلاثة من عبـاقرة ألمانيا هم : هيجل وفويرباخ والشاعر هيلدرلن .. وكان الثلاثة فقراء .. وكانوا يقتسمون هذه الغرفة الصـغيرة التى تحولت الى متحف ••

وفى هذه الغرفة عاش الشاعر الالمانى هيلدرلن أربعين سنة •• وبعدها انتقل الى مستشفى الامراض العقلية ليعيش أربعين سـنة أخرى ••

والثلاثة مختلفون فى تفكيرهم ‥ هيجل رجل مثالى يؤمن بالروح المطلقة وبالامبراطور والدولة .. وكل ما هو مجرد .. وفويرباخ رجل ملحد مادى عملى .. لا يطيق هذه التجريدات الفارغة ‥ أما هيلدرلن فهو عميد الشعراء الالمان ونبيهم أيضا .

وهذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية ‥ ولم يكن يستطيع أن يلمس أصابع فتاة الا بصعوبة .. فقد كان عليه أن يعطى دروسا لاحدى الفتيات لكى يلمس يديها فقط ‥ ولما أحس أن الفتاة تنظر اليه بشىء من الاشفاق ـ هى غنية وهو مدرس فقير ‥ ولم يكن أحد يعرف أنه سوف يصبح عبقريا مجنونا بعد ذلك ـ قرر أن يأوى الى فراشه وأن يكتفي بهذا الشعور من جانب الفتاة ‥ هى حسنة النية وهو لا يطيق أن يكون مثيرا للشفقة !

وعندما ذهبت الى بيت الشاعر هيلدرلن كان الباب مغلقا . خبطت على الباب . فتحت سيدة تسألنى ما الذى أريده . وواضح من شكلى أننى لا أريد شيئا منها . وانما أريد أن أرى فقط أين كان ينام ويحاول الانتحار هذا المسكين العظيم ‥ وهو مسكين مرة أخرى لان هذه السيدة قد اشترت البيت الذى كان يسكنه الشاعر‥ وفتحت السيدة الباب وأقفلته ورائى . ولم تقل لى كلمة واحدة . وانما أشارت بيدها الى الغرفة الصغيرة النظيفة : وهى غرفة طالب بها سرير ومكتب . ولا يوجد بها كتاب واحد ‥

وهذه الغرفة لا يمكن مقارنتها بالبيت الذى كان يسكنه الشاعر جيته فى مدينة فرانكفورت . فهو بيت أمير الشعراء الالمان ووزير المعارف فى حكومة فيمار ... وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم ‥

وهذا البيت لا يشبه أيضا بيت الموسيقار بيتهوفن فى مدينة بون ‥ فالبيت كله من أوله لآخره قد خصص للموسيقار ‥ وكان الموسيقار يقيم فى بعض الغرف الضيقة فى الطابق الثانى ‥ فما تزال هناك بعض الحلل والأوانى ‥ وخصلة من شعره . ومخطوطات بقلمه ‥ وتوجد هناك « السماعات » النحاسية التى كان يضعها على أذنه عندما أصيب فى أذنه ‥ وهذه السماعات تسجل تطور

الاصـــابة عنده ·· فمـا زالت هذه السمـاعات تكبر وتكبر حتى أصبحت فى حجم بوق الفونوغراف القـديم ·· أو حجم قمع الجاز الذى يستخدم فى دكاكين البقالة فى الريف ··

وبيت بتهوفن أحسن حالا من بيت الموســيقار موتســارت فى مدينــة ســالزبورج بالنمسا · فهـذا البيت قائم فى السوق ·· والسلم ضيق ·· والغرف مظلمة وضيقة أيضا ·· وكل شىء فى البيت الصغير.. أى على مقاس موتسارت.. فقد ظهرت عبقريته وهو طفـل ·· وكل شىء فى البيت يؤكد هـذا المعنى : الطفولة العبقرية ··





صنعت فى أمريكا : الجليطة !

ومن التغيرات التى لم تعجبنى فى ألمانيا ـ هذا مجرد رأى سائح يريد أن يرى ما يعجبه · وطبعـــا ليس لدى ألمانيـــا أى استعداد أن تفعل ما يعجبنى ومن أجل عشرين أو ثلاثين جنيها أنفقها فى ألمانيا كل سنة ـ لقد تحولت مطاعمها وحاناتهـــا ذات الطابع الالمانى القديم الى قاعات أمريكانية ··

وأنا أذكر أننى عندما ذهبت الى « حانة ميونخ » الشـــهيرة بأن هتلر كان يعقد اجتماعات النازى فيها ، كانت المناضد طويلة كبيرة ·· وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين ·· متشابكين أيضا رغم أننا لا يعرف بعضنا البعض .. فاذا جاءت الجرسونة الضخمة وألقت بالاكواب والاطبـــاق واللحوم على الموائد الطويلة امتـــدت الايدى وتشاركت وتشابكت ·· واهتز النـــاس يمينا وشمـــالا ·· ومع الاهتزاز تلتقى الاجسام والخدود والشفاه .. شـــفاه غريبة .. ولـــكنها تتعـــارف بلغـــة عالمية .. وتختفى الوجوه فى عنـــاق كله ابتسامة وسعادة ·· والموسيقى تعزف ألحانا لا يعرفها السائح الغريب ·· وكما يفعل الالمان كنا نفعل ·· يقفون على المناضد ·· نقف · يغنون ·· نغنى · يرقصون ·· نرقص · الاذرع ممدودة والشفاه جاهزة . والابتسامات حاضرة والضحك أعلى من الموسيقى .. ولا أحد يعرف أحدا .

وعندما جاء قائد الأوركسترا واختارنى من بين كل الواقفين على المنضدة صفق لى كل من فى قاعة ميونخ .. وسرت وراء المايسترو الى المنصـــة ·· والموسيقى كلهـــا تتقـــدمنى ·· ثم أعطانى عصـــا القيادة ·· وصفق الحاضرون ·· وانحنى المايسترو بعد أن ترك لى زمام الموسيقى ·· وعلى الرغم من انها نكتة ·· لكن احساسى بأننى

عينت مايسترو وبلا مؤهلات ولا مقدمات وفى بلد الموسيقى ..
وكأننى بطة ألقيت فى الماء بدأت أبلبط بيدى .. والفرقة الموسيقية
تعزف ألحانا جميلة .. وراحت العصا فى يدى تعلو وتهبط .. وأنا
فى دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الالحان التى لا أعرفها ..
وانتهت الفرقة الموسيفية من العزف .. وتقدم المايسترو وأعطيته
العصا .. وشكرته .. وذهبت الى مكانى فوق المنضدة الطويلة ..
ولم ألتفت كثيرا الى التصفيق على الجانبين فلابد أنه كان للعصا ..
أو للشجاعة الغريبة التى اكتشفتها فى نفسى .. ولاحظت أن
الجهلاء أشجع من العلماء ..

وعندما نزلت من مكانى فوق المنضدة ووجدت المايسترو وقد
خلع قبعته وانحنى ولاحظت أن الجميع يلقون بالفلوس فيها ..
هه .. فهمت .. ومددت يدى فى جيبى وأخرجت ما به ووضعته
فى القبعة .. لا أعرف بالضبط كم دفعت ..

ولكن قبل أن أترك حانة ميونخ هذه تبينت بوضوح جدا أننى
يجب أن أذهب الى السجن وأسلم نفسى فقد أعطيت المايسترو كل
ما معى من فلوس .. وليس عندى ما أدفعه للتاكسى أو الفندق..
وأهون على نفسى أن أدخل السجن من أن أذهب الى المايسترو ..

وقبل أن أكمل هذه الجملة سألتنى فتاة — الله يخليها ويطول
عمرها — ان كنت أريد أن أسترد بعض أموالى من المايسترو ..
فهززت كل جسمى واهتز رأسى ضمنا بما معناه : نعم .. الله
يسترك .. !

وذهبنا معا الى المايسترو . وابتسم وكأنه اعتاد هذا الموقف
وأعطانى العشرين جنيها .. وتركت له جنيها وشكرته ..
وشكرنى أكثر !

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتها تغيرت .. تبدلت ..
فسدت .. أصبحت كأية قاعة فى فندق كبير .. المناضد صفت
منعزلة .. والناس قد ارتدوا الملابس السوداء المنشاة — يخص !
والسقف قد امتلأ بالنجف — يخص .. والفرقة الموسيقية التى
قدتها يوما ما قد وقفت هناك بعيدا وفى غاية الاناقة والشياكة ..
والفرق واضح الآن بين الحانة زمان والحانة الآن .. انه كالفرق
بين بيت العيلة والشقق الصغيرة فى العمارات الجديدة .. بيت
العيلة هيصة وكل الناس يعرفون كل الناس .. أو من

السهل أن يتعارفوا ‥ أما هذه الشقق الصغيرة فكل واحد قافل بابه على نفسه ‥ ولا شأن له بغيره ‥ فهذه المناضد الصغيرة هى جزر معزولة فى بحار من النظافة والبرودة.. واختفى الفالس وظهر الروك أندرول والتويست والجرك – يخص ‥

ولم تعجبنى أيضا من الالمان هذه الوقاحة الامريكية .. فأنت تجد الرجل طويلا عريضا يمضغ اللبانة وينقلها من اليمين الى اليسار . انه حتى لا يفعل ما يفعله أبناء اليمن عندما يمضغون القات ويمتصونه فيتركونه متكوما فى جانب الفم ولا يحركونه يمينا وشمالا بشكل يفزعك فتظن أن الحركة القادمة سوف تصيبك فى وجهك ‥

وعندما ذهبت الى صديق صحفى استقبلنى بحرارة . وأجلسنى بالضبط فى مواجهة حذائه الذى وضع على المكتب . وكان اذا أراد أن يتأكد من شىء قاله أو قلته انما يفتح ما بين قدميه وينظر الى من هذا الاطار الجلدى .. وكنت أعرف صورتى فى عينيه لانى أرى صورته بين الجزمتين ‥ انها تتسع وتضيق ‥ وكان فى نيتى أن أسأله ان كان فى الاستطاعة أن أضع رجلى على المكتب مثله تماما ‥ ولو وافق لترددت لانى أريد أن أعرف ما الذى ينصحنى به فى حكاية الامبراطورة ثريا ‥ فقد كان يضع فى فمه سيجارا ضخما ‥ والآن تستطيع أن تتصور الصعوبة التى أعانيها لكى افهم منه أى شىء ‥ صوته هامس ‥ والسيجار يمتص بعض الحروف ‥ وما تبقى من حروف يتساقط فى المرحلة الأولى بين السيجار وانفتاح الجزمتين ‥ ثم بين الجزمتين ‥‥ ثم فى المرحلة الاخيرة عند أذنى التى لطشها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن ..

وكان المفروض أن أشهد طلاق الامبراطورة ثريا .. فقد تقرر أن يعلن طلاقها من الامبراطور فى وقت واحد فى طهران وفى كولونيا حيث السفارة الايرانية ‥ وكان من رأيه أن أذهب الى السفارة وليكن ما يكون . وذهبت الى السفارة وانطلقت خراطيم المياه ومن ورائها الكلاب وتعلق الصحفيون بالسيارات وبفروع الشجر ‥ ورأيت ثريا بفستانها الاسود ‥ ويبدو أن ثريا قد اختارت لون النهار والليل أيضا ‥ فقد كان النهار أسود والليل كذلك ‥ فلم أفلح فى أن أراها عن قرب أو أتحدث اليها ‥

ونصحنى الصديق صاحب الجزمة اياها أن أذهب معه الى صديقة

له تعمل فى الصالون الذى تتردد عليه ثريا .. وذهبت . وتهامسا وتلامسا .. وتعانقا .. ولم أكن فى حاجة الى أن أسأل عما اتفقا عليه ·· وفي اليوم التالى كان معى نسخة مكتوبة من الحـــديث التليفونى بين ثريا والامبراطور ·· وعلى جانبى الخط كلمات : ياروحى .. ياحبيب قلبى .. ياحبيبة قلبى ــ الله امال اتطلقوا ليه ؟!

هذه العبارة الاخيرة لم يقلها أحــد · انا الذى قلتها · وأظن أن الحق معى · وتم الطلاق الامبراطورى ··

وبدأت أطارد الامبراطورة.. هى فى سيارتها وأنا فى القطار .. وكانت مطاردة مضحكة .. تماما كما أطارد ثعبـانا فى أواسـط أفريقيا وأنا ما أزال فى القاهرة ·· كل ما أعمله هو أن أتجه فقط ·· الى مكان الثعبان ·· ولكن من المستحيل أن أصل اليه ··

ودعانى الصـــديق الصحفى أن أمر عليه فى البيت ·· وذهبت ووحدته يتناول غداءه ·؛ ولم يقل لى تفضل ·· لاقول له : شـكرا ·· سبقتك · مع أننى لم أكن قد ذقت أى طعام ·· ولكن أمام نذالته لابد أن اتخذ مثل هذا الرفض .. ولم يعجبنى هذا الموقف لانه لم يمكننى أن أرفضه !

ومثل هذه التصرفات الصغيرة كثيرة ·· وكلها تدل على أن الالمان قد تعبوا من النظام الدقيق فى كل شىء ·· وبدأوا يخففون القيود ·· أى بدأوا يهونون الامر على أنفسهم ··

واذا كان فى المانيا شىء من الانحـــلال ، فهـــذه علامات العصر الحديث ، فى أوربا كلها ·· ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من وجود انحلال .. أو ضعف جسمى أو نفسى .. فالضعف صفة من صفات الكائنات الحية · والدول كائنات حيـــة ·· أو تتكون من ملايين الكائنات الحية التى جعلتها الحــرب الاخيرة تكفر بالقيم والمبادىء .. لانها ضحايا المبادىء العتيقة .. ولابد أن تستسلم لحالة تستريح فيها من المبادىء .. اى تكون فى حالة أجازة طويلة من المبادىء الاخلاقية والاجتماعية..فى حالة تمرد على الاوضاع.. على المجتمع ·· على النفس ·· ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف فى الطابور ·· والمشى على الخط ·· والاتجاه الى المصـــانع والمكاتب والآلات والمراسم والمعابد .. ولايمكن أن يكون هذا التطور الهائل فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل فى المانيا مجرد صدفة ..

أو مجرد أنهم كنسوا الشوارع من أنقاض الحرب فانكشفت هذه المصانع والمعاهد والحدائق والفنادق والكباريهات ٠٠ انها «المعجزة» ـ أى حتى لاأخطىء مرة أخرى ـ انه المجهود العبقرى الذى قام به الانسان فى مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال ٠٠ والقدرة الابداعية فى العلوم ..

والالمان يعرفون هذا التفوق فى أنفسهم ٠ ويعتزون بذلك . ففى المعرض الدولى الذى أقيم فى بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت المانيا جناحا ٠ وأهم معالم الجناح لوحة وضعت الى جوار المدخل ، دون أن يلفتوا اليها العين ٠٠ كأنها شىء عادى ٠٠ أو كأنها مجرد لوحة عليها أسماء ٠٠ هذه اللوحة عليها أسماء الالمان الذين فازوا بجائزة نوبل .. وعدد الفائزين : ٣ فى السلام و٧ فى الادب و١٠ فى الطب و ١٥ فى الطبيعة و ٢٢ فى الكيمياء !!

(عدد الفائزين بهذه الجائزة فى القارات : آسيا وأفريقيا واستراليا : رجلان أديبان ٠٠ أحدهما هندى هو طاغور ٠٠ والثانى يابانى اسمه كاوابا . وليس هذا كثيرا على الالمان .. ولكنه قليل جدا علينا ٠٠ أى على حوالى ألفى مليون نسمة !)

ويبدو أن الالمان أيضا يذهبون الى المعامل والمصانع بنفس الحماس الذى يذهبون به الى الثكنات ٠٠ ربما كانت الثكنات هى التى دفعت الالمان الى المصانع والى اثارة الحروب تماما كاثارة النظريات الجديدة فى كل العلوم ٠٠

فالالمانى يحب النظام والطابور وعنده صبر عظيم ٠٠ وهذه المزايا تجعله عالما ، وتجعله جنديا .. وتجعله بارزا فى العلوم وصارما فى القتال ٠٠

والمانيا الان محتلة فى الشرق وفى الغرب حتى لا ينهض لها جيش وحتى لا تكتوى أوربا مرة أخرى باندفاعاتها المجنونة .. ولذلك تسربت قواها الشابة وقدراتها الهائلة الى الانتاج ٠٠ الى البناء ٠٠

ويتولى « ترويض » الشعب الالمانى : الامريكان ٠٠ ويتولى ترويض الامريكان على ترويض الالمان أغنياء اليهود ٠٠

فليس أسهل من أن تلاحظ أن اليهود عادوا الى المانيا بكل قوة وكل مرارة . وأنهم بدأوا يضطغون على الالمان ليكفروا عن خطيئة طرد هتلر لهم من كل مكان .. وتعذيبهم واحراقهم بالالوف ـ واليهود يقولون بالملايين وهم كذابون طبعا ـ

ففى الكتب المدرسية نجد الحياة فى اسرائيل مقررة على الطلبة .. ونجد الحياة فى المستعمرات اليهودية من ضمن موضـــوعات الانشاء .. كما أن دور النشر اليهودية أعادت كتابة التاريخ وأظهرت الالمان أمام أنفسهم وحوشا وســفاحين .. ان خطيئة هتلر يجب أن تظل خطيئة الى الابد .. وان الالمان يجب أن يعوضوا كل يهودى عن كل ما فقده .. فهم يطلبون تعويضات عن الاب والابن والبيت والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة .. وكل هذه الاموال ذهبت وتذهب الى اقامة اسرائيل ..

كنت فى المانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر أحد المدرسين الالمـان مع رجل يهودى فى حانة وقال له : ان غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل من اليهود عددا كافيا !

وقامت الصحف وقعدت . وأثيرت هذه القضية فى البرلمـان . ولعبت أجهزة الاعلام بأعصاب هذا الرجل وأعصاب الالمان . وأدعت الصحف أن هذا المدرس قد تلقي وعدا خاصا من جمال عبد الناصر بأن يعينه مدرســا للغة الالمانية فى مصر ــ يعنى هذا الرجل على اتصال بأعداء اسرائيل ، أى بمصر .. ومعنى ذلك أنه اضطر الى هذا الموقف .. أى أن الالمـان لا يفعلون ذلك عادة ، الا بتحريض أجنبى !

وحوكم المدرس وسجن !

وأرشيف وزارة الخارجية الالمانية ينفتح وينقفل حسب الطلب. واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجيــة لالمانيا الغربية لانها دولة محتلةمن الامريكان .. وبين الحين والحين تظهر علامات النازية على الجدران والمعابد .. والحزب النازى الجديد عندما انتصر فى بعض الولايات الالمانية انزعج الالمان . والصحف الامريكية . ورأوا فى ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية ــ أى ضد اليهود ..

واليهود ــ كما هى العادة ــ يتولون مهمة افســاد الشباب فى العـالم .. وفى المانيــا يديرون بيوت الدعارة والكباريهات ونشر الاباحية الجنسية والمخدرات . ومعظم الكباريهات فى المانيا يديرها يهود . وفى برلين وحدها يملك شاب يهودى أربعة كباريهات .. منها « عدن » .. و « جنة عدن » .. وهى أماكن لتجارة النساء من كل لون !

أما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخاو . . المعسكر واسع محاط بالاسلاك العالية ·· وحول المعسكر توجد قنـــوات المياه التى تفصل الاسلاك العالية عن داخل المعسكر ·· وفى داخله غرف الغاز التى كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الالمان المسيحيين ·· ويوجد معرض للصور ·· صور المعتقلين وهم متجهون الى المحارق ·· وصور للخطابات والمنشـــــورات وأوامر الاعتقال . . والزوار قد مدوا أيديهم ليفقأوا كل صور لهتلر . .

وتوجد مقابر لرماد الضحايا ··

والارض فى المعسكر مفروشة بالفحم الاسود ·· ليشعر الزائر أن كل شىء نار ورماد ·· وهنا معبد يهودى ·· ويقابله كنيسة . .

وكل يوم يضاف الى هذا المعسكر جناح جديد ·· وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الاخرى ·· والمعسكر واسع شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان ·· وزيارته واجبة على كل طلبة المدارس ورياض الاطفال ·· حتى يشعر كل المانى أن أجداده مجرمون . . وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين . .

واذا حاولت أن تستوضح أحدا من الالمان قال لك : نحن بلاد ممزقة ومحتلة . . والامر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا ·· وغيرهم هم الامريكان ·· واليهود !

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع ! . .





الذين ولدوا ليعيشوا :

أى ليشربوا ويرقصوا

وليغنوا معظم الوقت !

إيطاليا .. للمرة العشرين



صوفيا وأخواتها



عشرين عاما نشرت الصحف اننى مسـافر على « ظهر » الباخرة اسبيريا الى أوربا ٠٠

ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر ٠ فهو خبر عادى ٠٠ فمن الممكن أن اسافر أنا أو غيرى الى اوربا وعلى ظهور البواخر او الطائرات . ولكنى ضحكت لاننى سافرت على ظهر الباخرة فعلا وليس مجازا . . وتحولت الباخرة الى حصان أو حمارة أوعربة كارو تحمل جوالات من الشعيروأنا راكب فوقها . فلم يكن سفرى بالباخرة على أية درجة : لاأولى ولا ثانية ولا ثالثة . . وانما على ظهرها . . فمنذ صعدت الى الباخرة من ميناء الاسكندرية وأنا على ظهر الباخرة ٠٠

ولم يكن الليل قد جاء لافكر فى مسألة النوم وكيف وأين ٠٠ ولكن انحصر تفكيرى فى أين أضع حقيبتى دون أن افقدها ٠٠ وعنـدما فحصت وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه ٠٠ ولا حتى كان المسافرون كلهم من المصريين ٠٠ ولا حتى الذين سيشاركوننى ظهر الباخرة من المصريين ٠٠ ووجدت الكثير من الحقائب والصناديق والنـاس قد تكدسوا فى كل مكان ٠٠

وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق ٠٠ فكرة ٠٠ وسمعت من يقول ان البحارة يؤجرون المقـاعد ٠٠ وانهم ينصبون خيمة فى مهب الريح ٠٠ وانه من الممكن أن ننـام تحت هذه الخيمة ٠٠ ومعنى ذلك أن النوم ممكن ٠٠ ليلة وراء ليلة ٠٠

أما الشنطة ففى استطاعتى ان أربطها فى رجلى ٠٠ أو اضعهـا تحت رأسى ٠٠ هكذا قيـل لى ٠٠ ولكن عنـدما أعدت النظرة الى الشنطة ندمت على اننى اتيت بها ٠٠ فلا هى مليئة بالملابس ٠٠ ولا أنا سوف أملؤها بالملابس ٠٠ ولا ضرورة لها ٠ وكان فى امكانى ان

اشترى كيسا من الورق أضع فيه بعض ملابسى .. واذا اتسخت أو تمزقت ألقيتها فى البحر . فالشنطة خشبية .. وجوانبها محددة . ولم يصنعها أحد لان ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف .. وتصورت نفسى وقد ربطت هذه الحقيبة فى رجلى .. ولسبب من الاسباب نهضت من نومي والحقيبة في رجلى .. وتخيلت الجنود الانجليز أثناء الحرب العالمية الثانية .. عندما كان ماسحو الاحذية يربطون أحذيتهم فى صندوق البوية ، فاذا حاول الجندى أن يطارد ماسحي الاحذية ، فانه يتعثر ويتشقلب .. وتتاح فرصة لماسح الاحذية أن يهرب ..

وقد حاولت في احدى المرات أن اهرب من مثل هذا الموقف فلم أفلح .. فقد حدث انني داعبت أحد البحارة مداعبة عنيفة عندما كانت الباخرة تمر فى مضيق مسينا بين ايطاليا وصقلية .. وكان الليل دافئا .. وكنت متعبا فقررت ان أنام فى ساعة مبكرة .. وتمددت على ظهر السفينة تحت خيمة منصوبة .. واحتضنت حقيبتي .. وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة في يدى .. وفي ساقي .. وفجأة أحسست بمطر ساخن .. يغلى .. غريبة .. فالخيمة يتساقط منها المطر الساخن .. وحاولت أن ابتعد عن مكان المطر العجيب .. وقد حاصرنى المطر من اليمين والشمال .. وعند ساقى وعند رأسي .. وقفزت والحقيبة قد ارتطمت بي .. وتشنكلت فيها .. ولم تكن هذه امطارا ساخنة وانما كان أحد البحارة يلقى بالماء الساخن من ثقوب فى الخيمة !

ولم يعجبنى هذا الهزار الملتهب فلم أنم تحت الخيمة .. وقررت ان أظل طول الليل اتفرج فى الدرجة الاولى على الراحة التى ينعم بها بعض الناس .. أو بعض الحيوانات .. فلم تبعد عينى كثيرا عن كلب بنى اللون صغير قد نام على كرسى فى الدرجة الاولى .. وهو مثل سيده قد أدار هذا الكرسي وأدار ظهره للناس وللبحر .. أما سيده فهو الامير يوسف كمال الذى كان مسافرا معنا الى أوروبا .. ولكنه سافر لآخر مرة ولم يعد !

وفى العام التالى سافرت الى أوروبا فى جوف طائرة كانت مخصصة لنقل الماشية من الحبشة الى السودان .. ولكن الطائرة جيدة .. ولم تترك هذه الحيوانات أى أثر فى داخل الطائرة .. ولا حتى أية رائحة .. وانما ما تزال فيها بعض الحبال .. التى

تطورت فى الطائرات الاخرى الى الاحزمة المعروفة والتى يربطها المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة .. ولان الحيوانات كانت تقف بالعرض فى الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد .. لان هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس الناس الذين جاءوا لحماية وخدمة هذه الحيوانات .. ولذلك عندما قررت شركة هذه الطائرات ان تجعلها طائرة ركاب ونقل الادميين جعلت المقاعد بالطول .. فكنا نجلس متجاورين ، كما يجلس الناس فى زورق أو سفينة شراعية .. وكانت الحبال مشدودة على بطوننا ، وكنا نمسكها ونتأرجح معها كلما حدث أى اهتزاز ، وكان عددنا كبيرا . وقيل فى ذلك الوقت ان عددنا هو بالضبط العدد الذى يناسب الغرض المطلوب .. خصوصا اذا كان هذا الغرض هو الغرق فى البحر .. فاذا أضفنا الى عددنا الكبير حقائبنا الثقيلة ، اندهشنا للخفة والرشاقة التى تحركت بها الطائرة من الارض الى الجو ومن الجو الى طبقات عليا اخرى من الجو .. أما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال انه بفضل دعاء الوالدين .. ولان عدد اليتامى بين المسافرين كان أغلبية ساحقة !

وكنت أحدث اليتامى ، فقد توفى والدى منذ عام ونصف عام !

ولم يكن غريبا أن نضيق بهذه « الدكك » الملتصقة بجدران الطائرة .. ونجلس على أرضية الطائرة .. وبسرعة ظهرت أوراق اللعب والطاولة والشطرنج .. ولست متأكدا من أن أرضية الطائرة قد تغطت بقشر الموز والبرتقال أو البيض .. ولكن من الواضح انها تغطت بورق الصحف .. وعلب السجائر ..

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية الى خطوط دائرية .. ثم الى دائرة واحدة .. واهتزت الطائرة بالتصفيق .. فقد تحزمت المضيفة الأمريكية وراحت ترقص على وحدة ونص .. ويشاركها ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الاشقياء .. وكانت المضيفة تضحك وتترنح من الرقص والانبساط .. ولا يمكن أن يتصور أحد اننا فى طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتتجه الى اليونان بسرعة ٤٠٠ كيلو متر فى الساعة ..

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونطر ووزع اللعنات على

الجميع بالعدل أما المضيفة فانه سحبها من ذراعها وشد الستارة على كابينة القيـــادة .. وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا أن نجلس في أماكننا وان نربط الحزام ـ الحبل ـ والا نتحرك حتى تهبط الطائرة في مطار اثينا ..

وبدأت الطائرة تعلو وتهبط .. وتميل يمينا وشمالا وتنكفيء على وجهها .. وتقف على ذيلها .. ونحن نهتز ونرتجف ونتساقط تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح في يوم شـــديد الريح .. وكانت النتيجة الطبيعية هي أن يصاب بعضنا بحالة من الدوخة والقيء والاغماء ..

وطالت الدوخة .. ومضت الطائرة في حالة من « المرمطة » .. الهــواء أو الضغط هو الذي مرمطها ومسح بها السماء ثم غسلهــا بعد ذلك بالمطر . .

وعندما هبطت الطائرة في مطار اثينا .. ومشت على الارض .. واقترب منها السلم .. وانفتح الباب لم ينزل منا واحد .. فقد كنا جميعا في حالة من الدوخة المؤلمة ..

ومن وجوه الكابتن ومساعده والمضـــيفة التي تغيرت ملامحها تماما ، تساءلنا عن سبب غضب الكابتن .. وعرفنا أن السبب كان أبعد مما تصورنا .. أو مما تصورت أنا .. لقد كان السبب مخجلا حقيقة .. يبدو أن أحدا من المسافرين قد أعطاها شـيئا مخدرا في سيجارة أو في كوب شاي .. أو بلا سيجارة أو شاي .. قد جعلها لا تستجيب لاشارات الكابتن ومساعديه .. وهذا ولاشك نوع من التخريب ! ..

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطيء البحر الابيض المتوسط ذهابا وايابا .. وعلى الرغم من أنه لاتوجد الا طريقتان هما ، بالبحر وبالهواء .. فان اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السـفر مختلفا تماما .. فالسفر على ظهر السفينة غير السفر في الدرجة الاولى .. والسفر في الدرجة السياحية في الطائرة غير السـفر معززا مكرما في الدرجة الاولى ومجانا مثلا ! ..

ولكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم أعد أهتم كثيرا بالدرجة ولا بالوسيلة ولا بالطـعام ولا بالشراب ولا أين أضـع رأسي ولا أين

أضع رجلى .. ولو وضعت رأسى ورجلى فى مكان واحد ــ كالجنين مثلا ــ فاننى لا أتردد فى السفر .. فهو المتعة الكبرى التى تساوى كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب ! ..

⊙❖⊙

ولا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بأول وجه ايطالى .. فى مصر او خارجها .. فالايطاليون موجودون فى كل مكان .. أو استطيع ان أقول بشكل آخر : أنه من الصعب الا تسمع أذنى كلمة واحدة ايطالية كل يوم ..

ففى المنصورة منذ ان كنت طفلا وأنا أسمع على الاقل كلمة واحدة ايطالية يوميا .. فقد كان فى بيتنا أسرة ايطالية .. وفى نهاية الشارع بقال ايطالى .. وفى الطريق الى المدرسة كنت أخوض طريقى بين عدد من التلامذة يتكلمون الايطالية ..

وفى سن مبكرة جدا اعتدت على اللغة الايطالية .. وعلى لهجتها وعلى طريقة النطق بها .. ولا أعرف لماذا اكتسبت لهجة ايطالية يصفها الايطاليون بأنها لهجة جنوبية .. ولم يحدث أن تحدثت الى أحد من الايطاليين حتى أبدى دهشته من لهجتى الجنوبية .. لهجة نابلى وصقلية .. مع اننى لم اكن رايت لا نابلى ولا صقلية .. وهى لهجة أقرب ما تكون الى اللهجة الصعيدية عندنا .. وعلى الرغم من اننى وجدت فى هذا الراى حفلة تكريم لمجهودى الخاص فى تكوين لهجة صحيحة ، فاننى أحسست بشىء من الضيق .. وهذا الطريق قد اضطرنى فى كثير من الاحيان الى ان أجعل صوتى رفيعا واتلاعب به موسيقيا .. ولكن كان رأى الايطاليين اننى لم أغير لهجتى وانما غيرت فقط من حجم الصوت .. برضه صعيدى ايطالى ! ..

وأنا لا احب الذى به يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وان كنت قد وقعت ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالم الوجه والجسم ، ولكن الايطاليين ، وكل سكان البحر الابيض لا يتكلمون وانما يرقصون ..

والايطاليون يتكلمون بصوت مرتفع .. ويخيل اليك اذا لم تكن تعرف اللغة الايطالية انهم يتشاجرون .. وأذكر انى كنت مسافرا

من روما الى فيينا في القطار .. ولم أجد مكانا . فظللت واقفا فى الممر .. وأخيرا عندما وصل بنا القطار الى ممر برنر وجدت مكانا .. ودخلت وهززت رأسي تحية للجالسين .. وتلمست طريقى بين السيقان الممدودة .. وفى الركن جلست .. وارتفع صوت غليظ واعتدلت لاعرف ما هى الحكاية..ومضى الرجل يتكلم عالىالصوت ولكن أحدا من النائمين لم يتحرك .. لا صحا ولا استنكر .. وجاء صوت ناعم يرد .. كانت زوجته .. ومضى الرجل بصوت مرتفع .. أما هو فكان كالذى يجلس على كرسى فى صالون حلاق .. يلف ويدور ويتقدم ويتراجع وأحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلل من قفاه الى ظهره .. والذى يسمعه يوقن تماما انها خناقة .. مع انه كان يروى قصـــة كيف سافر من القرية الى مدينة روما وهو صغير .. وعلى قدر فهمى فاننى اعتقد ان هذا الرجل فشـــار ــ وكل الايطاليين كذلك ــ لانه ينسب لنفسه مغامرات غير معقولة ..

وفجاة تعالت أصوات النائمين بالضحك .. وكانت أصواتهم أعلى من صوته .. انهم جماعة من الصعايدة الايطاليين .. ولكن حتى الذين ليسوا من صعيد ايطاليا فانهم لا يختلفون عن هؤلاء الا فى درجة ارتفاع الصوت .. ولكن الطريقة واحدة ..

فالايطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة أيضا .. وهم يؤمنون بتشغيل كل الحواس .. انهم أبناء هذه الدنيا .. هذه الارض.. وهم يضحكون .. كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب الشمال فى أوربا ، فهمينظرون الى كل شىء ويجدون شيئا يجعلهم يضحكون .. أى شىء .. ومن النادر الا يجد الايطالى نكتة أو قفشة فى أى شىء ينظر اليه أو يفعله أو يتذكره أو يعلق عليه .. على عكس سكان أوربا الشمالية .. ويبدو ان الايطاليين قد اقتسموا الدنيا مع الاوربيين الآخرين : هم يضـــحكون وغـــيرهم يفكرون ويحزنون !..

ولا يوجد ايطالى واحد لا يغنى .. ولا يرتفع صوته فى أى وقت وفى أى مكان بعبارة من عبارات الاوبرات المعروفة .. فعمال البناء يرددون عبارات وجملا موسيقية من أوبرات : توسكا ..والشهامة الريفيـــة .. ولا ترفياتا .. وعايده .. وفرانشسكادا ريمينى .. وفى الليل وانت نائم تجد صوتا يجلجل فى الشارع : انه أحد المارة يغنى .. انه ليس مخمورا .. ولكن المخمور هو وحـــده الذى

يرفض أن يغنى لانه يخشى أن يطلب اليه احد أن يسكت لا لأنه مخمور فلا عقوبة على الخمر ، ولكن بتهمة أن صوته قبيح .. وهذه تهمة كبيرة .. كما نتهم أى مصرى بأنه لا يفهم النكتة .. أو دمه تقيل .. أو لا يحب الفول بالزيت أو الملوخية بالارانب !

والايطاليون خبراء فى الاكل وفى الحب .. فهم يأكلون كميات كبيرة من الطعام .. لا بد من المكرونة والجبنة والنبيذ والفاكهة .. والفقير جدا هو الذى لا يجد النبيذ .. والنبيذ كثير ورخيص .. والرجل الايطالى لا يشرب النبيذ لانه «شريب» ولكن لانه يريد ان يفرفش .. ويضحك اكثر .. وعلى الرغم من الكميات الكبيرة من المكرونة التى يلتهمها الايطالى فان الاجسام الايطالية ممتلئة قليلا .. وقد وجد الايطاليون فى ذلك مبررا لسلوك آخر .. فالايطالى يطارد الفتيات فى الشوارع .. يطاردهن بلا تعب من شارع الى اتوبيس الى شارع الى اتوبيس .. فاذا لم يفز بشىء فى النهاية عاد يغنى .. ثم يستمر فى المطاردة .. واذا سألته عن السبب قال لك : لا بد أن أمشى .. انها المكرونة .. فأنا لا أريد أن أكون بدينا .. ثم كيف لا أغنى ! ..

أى انه يطارد الفتيات لانه يريد أن يمشى .. وهو يريد أن يمشى لانه يريد أن يفشل فى المطاردة ليغنى على خيبته بعد ذلك ! .

والحقيقة ان معاكسة الفتيات عادة لا يضيق بها الرجال .. ولا تضيق بها الفتيات .. فقد اعتادت المرأة على المعاكسة واعتاد الرجل .. وفى ايطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال انه بفبغان ـ بباجالو ـ لانه يغنى وراء الفتيات .. وان كان صوت البفبغان قبيحا .. فالبفبغان شتيمة فظيعة لاى رجل ايطالى ! .

ولكن الايطالى يتمتع بحياته .. وبعواطفه أيضا ..
والمرأة الايطالية تشجع على ذلك .. فهى واضحة المعالم .. وبارزة الانوثة .. الصدر بارز .. والارداف ممتلئة .. والخصر هزيل .. والعينان واسعتان .. والشفتان ممتلئتان .. الى آخر هذه الملامح الرومانية التى أضافت لها الحرية العاطفية أن تستمع الى معان أخرى كثيرة مشجعة للايطاليين ولغيرهم على أن يمدوا ايديهم وشفاههم ويتذوقوا معانى الحياة .. كما يفعلون على شواطىء الانهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى أطراف الغابات ..

فهى حملت على صدرها براكين فيزوف واسترومبللى . . وفى عينيها صفاء البحيرات وعلى رأسها أوراق وظلام الغابات . . وسيقانها وذراعاها وبشرتها . . مستعارة من نعومة الفواكه والحرير والبلاستيك والطرق المرصوفة ، والأغنية الايطالية تقول : المسينى بيدك . . قطعينى بفمك . . واخنقينى بشعرك . . وادفنينى فى صدرك . . واتركينى اتمدد الى الابد . .

وهذه الاغنية ينفذها الايطاليون منذ وقت طويل . .

والافلام الايطالية تلتفت الى هذه المعانى التى تهم المتفرج . .

فمنذ ظهر فيلم « مرارة الارز » بطولة سيلفانا مانجانو . . وأصبح التعرى على الشاشة شعارا للواقعية الجديدة . . ففى هذا الفيلم سقطت سيلفانا فى الوحل . . وارتفعت من الوحل لتسقط فى كل مكان آخر . . والعيون تأكلها . . والفتيان يقلدونها والفتيات أيضا . . ونسى المتفرج ان الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل فى ايطاليا . . ولكن المهم هو أن يرى اللحم الانسانى عاريا ليلتهمه ساخنا . . ولينسى المشكلة الاساسية بعد ذلك . . لان المشكلة الاساسية هى أن يحب ويأكل من يحب . .

وقد انطلقت كل الافلام الامريكية والفرنسية تعرى الفتيات وتغطيهن بالوحل . . ليجىء رجل يتظاهر بالشهامة ليغسل الوحل بالحب . . لان هذه هى القضية ! . .

وفى فيلم اسمه « الخائنة » بطولة جينا لولو بريجيدا أعلنت البطلة فى أول الفيلم : ان الجسم كنز الرجل الايطالى ومملكة المرأة الايطالية . . والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة !.

وهذه عبارة صحيحة . .

والافلام الايطالية — أو على الاصح الجمال الايطالى — هو الذى أطلق صدر جينا لولو بريجيدا وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى . . وساقى سيلفانا مانجانو . . وشفتى اليانوره روسى دراجو . . والصوت المبحوح النائم لسيلفانا بمبانينى . . وأصابع قدمى سكافينو . . وغيرهن من صواريخ الشاشة الايطالية . . وليس النساء فقط . . وانما الرجال أيضا . . فالرجل الايطالى فيه رجولة ويكفى ان نذكر فيتوريو جاسمان . . وماستوريانى . . وغيرهما كثيرون . .

انه الجسم .. وسحر الجسم .. ذلك الكنز والملكة الذى حول الشاشة من تصوير الاعماق .. الى تصوير الغـــلاف الخارجى الجميل والاتجاه الى الاعمـــاق .. فكل الاعماق تبدأ من قشرة التفاحة وبشرة المرأة ..

واذا كانت المرأة الايطالية فى الشمال شقراء ناعمة ، فان المرأة فى الجنوب سمراء واكثر نعـومة .. واذا كانت المرأة الايطالية فى الشمال اوروبية ايطالية ، فانهـــا فى الجنـــوب ايطالية فقط غنائية انثى .. محافظة .. والرجل هو السـيد .. هو السـيد للرجل وللمرأة أيضا .. ومن المناظر الغريبة ان نجد الصغير يقبل يدى الكبير .. أو نجد الجندى يقبل يدى الضابط .. أو يدى العمدة .. كما يحدث فى الريف عندنا وفى اسبانيا ..

ولكن الشعر الغنائى والرقة كلها فى الجنوب .. فأجمل الاصوات واحسن مؤلفى الاغانى يعيشون فى الجنوب .. ففى نابلى توجد أرق الاغانى الايطالية واكثرها أسى وعذوبة .. وفى صقلية توجد أروع أغانى الفلكلور .. وأعمق قصص الحب كلها فى الجنـــوب .. بل وأعظم أدباء ايطاليا من الجنوب .. من مثل : الاديب بيراندللو من صقلية .. والفيلسوف كروتشه من نابلى ـ صوفيا لورين أيضا ـ وكذلك فيرجا وبورجيزه وفورتنـاتو وسالفا مينى وبرنكاتى .. وغيرهم كثيرون ..

والفارق كبير بين أهل الشمال وأهل الجنوب ..

ومن العجيب أن احدى الصحف قد نشرت مرة هـذا الاعلان : لاشىء يضيع عنـدنا .. فاذا انكسرت العلب بعثنا بها الى الجنوب .. واذا تحطمت الزجاجات صدرناها الى الجنوب .. واذا اختلف موظف مع رئيسه نقله الى فرع الشركة فى الجنـوب .. اننا نجد لكل سلعة من يشتريها فى الشمال ، فاذا رفضها الشمال اتجهنا بها الى الجنوب ! ..

فايطاليا دولتان وشعبان : أناس فى الشــــمال .. وفقراء فى الجنوب !..

ولكنهم فقراء ظرفاء .. وأجمـل ما فى هؤلاء الفقراء نساؤهم وحناجرهم ! .

اذكر اننى أقمت فى مدينة بالرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت .. وفى أحد الايام ذهبت الى مطعم صغير يشرف على ميناء بالرمو . وخطر

لى ان ارتدى الملابس الوطنية .. البنطلون الضيق .. المفتوح تحت الركبة .. والقميص المفتوح عند الصدر .. والبرنيطة الكبيرة المصنوعة من سعف النخيل .. وعلقت سلسلة فى عنقى .. والسلسلة مكتوب عليها اسم فتاة .. لا أعرف من هى الفتاة .. ولكن السلاسل تباع فى الشارع جاهزة : باسم الفتاة وعنوان وهمى واسم أغنية معروفة فى ذلك الوقت .. ومررت أمام الفندق واشتريت سلة من التفاح الجميل .. ورأيت سيدة عجوزا تبيع النبيذ .. ومددت يدى واشتريت وصادفنى طفل غلبان يبيع الكعك والجبنة .. فاشتريت .. وقابلتنى سيدة فيها شبه كبير جدا منى اذا بلغت الثمانين فيما عدا ان لها شاربا خفيفا وكانت تبيع الورود .. ومددت واخذت .. وشكرتها .. وشكرتنى ..

والصورة التى أمامك الآن : هى صورة لسائح يشبه السياح الخواجات الذين يجيئون الى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر الى الامام .. ويمسكون الطبلة ويشترون الشباشب الزنوبة ويعلقونها فى رقابهم .. ثم يلفون منديلا حول العنق وشالا حول الخصر .. ويستعدون لاى نقر على اية طبلة ليرقصوا ويهزوا بطونهم .. ثم يضعوا فى جيوبهم سندوتشات الفول. أى أنهم يحاولون أن يكونوا قريبى الشبه جدا لصفات المصريين التى جاءت فى الكتب السياحية فى أوروبا وامريكا .. ودخلت أحد المطاعم ونهض صاحب المطعم وقال : بون جورنو .. ورددت عليه .. وقال لى اتفضل .. وساعدنى على نقل ما معى ووضعه على كرسى آخر .. وساعدنى على وضع الورد فى اناء جميل .. ووضع الورد امامى .. وجاءت زوجته بمفرش رائع ووضعته على المنضدة .. وجاءت ابنته .. وأخذت النبيذ والكعك .. وجاءت ابنته الصغيرة وراحت تمشط شعرى .. وتختار لى وردة وتضعها حول أذنى .. وجاء شاب ظريف وسيم .. ومد يده الى السلسلة ألتى فى عنقى .. ورأى اسم الاغنية .. وقال سعيدا : ان ذوقنا واحد ..

ومن المؤكد اننى كنت سعيدا .. ولكن لا أعرف مناسبة لذلك كله .. لقد كنت سعيدا والسلام .. والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا — لايهم ابدا . واعتقد ان هذا الموقف السعيد قد أثر فى نفسى زمنا طويلا .. فقد قررت بلا وعى منى أن أكون سعيدا والسلام .. وأجمل مافى هذا القرار أنه قرار جسمى .. أى أن جسمى هو الذى اتخذه مستقلا عن عقلى .. وهذه نعمة من نعم الله .. أن يكون للجسم قرار واحكام لايستأنفها العقل !

والتف هؤلاء الناس حولى . . وجاءوا بمقاعدهم . . وكل واحد جاء بطعامه وشرابه . . وجعلنا نأكل ونضحك . . ويتبادل الرجل وأولاده الرقص . . والغناء . . ونشترك معا فى هذه الهيصة . . ومن حين الى آخر انظر الى الوجوه ابحث عن مجنون . . لابد أن يكون هناك واحد مجنون - يغنى ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح . . لم أجد أحدا مجنونا . فالضحك صادق . . والسعاد مؤكدة . .

ولابد أن يسألنى أحد : ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم يحدث أى شىء بعد ذلك . .

فقد كنت أول زائر لهذا المطعم فى أحد الاعياد المقدسة . . وقد تفاعل الناس بزيارتى . . وغمرونى بالرقة والكرم والقبلات على الوجه وعلى الاكتاف . . وعلى اليدين . . والشىء الذى ضايقنى عندما عدت الى الفندق هو كيف اننى لم أرد على هذه القبلات بأحسن منها . . وكيف اننى كنت متفرجا ولم أكن ممثلا مندمجا فى الدور . . أو حتى متفرجا متحمسا . . والمصيبة اننى لم أكن أعرف المناسبة . . وانما هى مجرد الصدفة . . فقد تصادف اننى قررت أن أكون ايطاليا فى نفس اليوم الذى تحتفل فيه الجزيرة بعيد أحد القديسين . . وما أكثر القديسين فى ايطاليا !

ومثل هذا المشهد فى الجنوب لايمكن أن نجده فى الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة .

ولا يمكن أن يحس الانسان الا نادرا فى حياته أنه يخفى تحت جلده أجمل مافى الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراءة الطفل وأبدية اللحظة التى يعيشها !

والرجل الايطالى الذى يرقص ويغنى هو نفسه الذى يقتل ويسرق وينهب . . وهو أيضا الذى يذهب الى الكنيسة ويصلى . . بنفس الحماس والحرارة والصدق !

وايطاليا هى بلد : ماركونى مخترع الراديو . . وبلد آل كابونى المجرم الانيق . . وبلد كازانوفا العاشق الولهان . . وبلد الفاتيكان . . ومهرجانات السينما ومهرجانات الاغانى . . وسباق السيارات . . ومعرض « البينالى » فى البندقية . .

وايطاليا تشعل من الشموع فى كنائسها اضعاف ماتفعله أية دولة

اوربيـــة .. لكثرة الكنائس والقديسين .. ولكثرة المترددين على بيوت العبادة . !

ومن الحوادث المشهورة أنه فى سنة ١٩٥٣ هزم حزب ديجاسبرى فى الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من احد التماثيل فى مدينة سيراكوزه فى صقلية .. واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن الى حيث يبكى القديس ـ ملايين الناس وملايين الصور . . وأقيمت المطاعم والفنادق .. وطبعت ملايين الصور والتماثيل وطوابع البريد من أجل دموع القديس .. وبعد ذلك بشهور سالت دموع اخرى لقديســين آخرين فى مدن مختلفـة .. وتحولت السيارات والطائرات والبركات الى حيث الدموع الطاهرة اللامعـــة فى ضوء مالا نهاية له من الشموع !

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فان الايطاليين أيضا ليسوا متمسكين بالدين .. ففى ايطاليا اتجاهات دينية قوية : فيها الفاتيكان .. وفيها اتجاهات متحررة عامة : فيها أكبر حزب شـــيوعى فى أوروبا .. وفيها جمعيات أدبية متحررة .. وفيها هيئات فوضوية . .

وفى ايطاليا أدباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية ..

وقد ضحكت ايطاليـــا كلها مع فيلم « دون كاميللو » الذى قام ببطولته الممثل الفرنسى فرناندل .. والفيلم من تأليف الكاتب الايطالى جوارسكى الذى دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيســة . . ولكن ايطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذى يسخر من نصف المتفرجين عليه .. أى من القساوسة !

ولم يكتف المؤلف جوارسكى بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه « عودة دون كاميللو » . .

وظهر فيلم ثالث اســـمه « بيينو وفيولينا » .. أما بيينو فهو اسم طفل من مخلفات الحرب العالمية الثانية .. وفيولينا هو اسم « الحمارة » التى اشترتها القرية لهـــذا الطفل .. وقصة الفيلم الذى شاهدناه هنا فى القاهرة أن الحمارة مريضة .. والطفل يريد أن يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر القديس فرانشسكو .. وهو الرجل الذى أحب الطيور والحيوانات وكان يمشى حافى القدمين .. وهو الذى تنسب اليه جماعة الفرانشسكان الذين يحلقون شعورهم ويمشون حفاة .. أو يرتدون الصنادل التى تعرى القدمين كما كان يفعل القديس فرانشسكو . ورغب الطفل أن يدخل الكنيسة بحمارته .

وأمام رغبـــة الطفل رفض قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس فرانشسكو قد رسمت عليهـــا صور للطيـــور والحيوانات . . ويلجأ الطفل الى البـــابا .. ويناقش البابا والكرادلة فى هذا المطلب الغريب للطفل .. ويرون أنه لامانع من دخوله هو وحمـــارته الى الكنيســــة . ويدخل الطفل مع حمارته . . وتتعثر قدم الحمارة فى كنز فى داخل الكنيســـة .. وهـــذه النهاية للفيلم هى التى تجعل المعنى الاخلاقى واضـــحا : وهو ان الكنوز تتفتح للمتواضعين والمؤمنين البسطاء .. ايمان الاطفال ! ..

ثم هجوم سينمائى على هـــذا الفيلم .. ومناقشة فيها كثير من الاستخفاف للقصص الدينية . .

وكل هـــذه المتناقضـــات الحيوية الحارة موجودة فى ايطاليا وفى الشعب الايطالى ..

◎❖◎



طلياني بين الصعايدة !

أولاد شوارع .. بكل معنى الكلمة فى كل اللغات .. فبلادهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافىء الى الشمال الجليــدى .. جعلتهم يعيشون بالســاعات فى القطارات والســيارات .. وفى الشوارع المرصوفة النــاعمة .. وجعلتهم أصحاب أكبر عدد من المقاهى والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة والضخمة فى أوروبا كلها ..

وكلمــــة « شارع » تتردد كثيرا فى أسماء القصص والافلام لان الشارع ملتقى حيوى لكل الناس ..

والشارع تتغير معالمه فى كل ساعات الليل والنهار ..

ففى الصباح المبكر تجد الشــارع عبارة عن ميدان لاطلاق النار والدخان . . فالسيــــارات كثيرة وسريعــة ومدوية . . وكذلك الفسبا الصاخبة ..

وبعد ساعة تمتلىء الارصــــفة بالمشاة المسرعين .. كل واحدة وواحد الى عمله ويقفون بالعشرات أمام محطات الاتوبيس ..

وبعد ساعة اخرى يجىء دور الارصفة .. وعلى الارصفة تجتمع المقاعد الملونة والمفارش النظيفة .. وأكواب الماء .. والشاى والقهوة .. ويجلس الناس على المقاهى ويحلقون بعضهم لبعض ..

وعند الظهر تتحول الشــــوارع الى سوق ومهرجان وترسانة للسيارات والاتوبيسات والناس والسياح والضوضاء .. والصراخ والاصطدام والمعاكسات ..

أما عند الغروب فالشارع والارصفة مهرجان .. وعرض للازياء والجمال الايطالى .. لا أول له ولا آخر .. ودوخة مؤكدة اذا قررت ــ بسبب قلة العقل والجشع ــ ان تتابع كل الفساتين وكل الاحذية وكل الاذرع والسيقان والصدور والشفاه وتحاول أن تترك أثرا أو تتلقى أثرا .. أو تطلق اشارة أو تتوقع اشارة .. وأحسن نصيحة

لك هى أن تفعل بالضبط مايفعله رواد الفضاء أن تستلقى على ظهرك وتترك نفسك فى حاله انعدام الوزن .. وتعود الى الفندق بعد ذلك تبتلع ما تستطيع من الحبوب المنومة .. واذا كنت سعيدا رأيت شيئا ما فى أحلامك يعوضك عن الحرمان بكل ألوانه الطبيعية ! .

وفى ساعةمتأخرة من الليل .. يصبح الشارع اسود لامعا مغسولا باردا .. ويقذفاليك الهواء بالموسيقىوالروائح الغريبة من كل جانب .. وينتهى بك الشارع عادة الى نافورة .. لايوجد شارع لايصل الى نافورة . . وهذهالنافورة هى دشرقيق جميل لتخفيف حرارة الجو .. او حرارة الجوف .. وانت حر بعد ذلك أن تدير ظهرك للنافورة وتتفرج على جمال الليل . . الذى يلقى ضياءه الحالمة الرقيقة على الوجوه الجميلة .. أو على حركة الجمال الرقيق فى الشارع منرصيف الى رصيف .. أو منالرصيف فجأة الى سيارة ذات فرامل صارخة ـ وما أكثرالسيارات التى تتوقف فجأة وتلتقط بنات الشوارع .. وبعد لحظات تنفتح السيارة وتلقى بنات الشوارع الى الشوارع ..

وانت ماتزال حرا فى أن تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه يتسلل الى ملابسك .. فللماء فى هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما يصيبك اليأس ..

وهذا الليل فى ايطاليا هو ابو المساكين والمحرومين والمفكرين .. ولانه أب للجميع فهو قادر على ان يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع شارعين .. وفى الميادين وعلى المقاهى .. وفى الاركان المظلمة وفى مداخل البيوت .. وفى المصاعد التى تقف فى الظلام عند الطابق الاخير وتنفتح الابواب دقائق .. ثم يعود الهاربون فيها الى الشارع مرة أخرى ..

وبعد منتصف الليل .. تتعالى أصوات العائدين الى بيوتهم ـ ويدور بينهم وبين رجال البوليس أحاديث وابتسامات وغمزات ولمزات .. يقول عسكرى البوليس :

ـ الى أين ؟

ـ وانت الى اين ؟

ـ عندى موعد غرامى .

ـ يابختك ..

ـ ـ سمعت هذه العبارة من أمى ومن أحد اللصوص ..

ـ لقد كانت امك على حق . .
ـ وانت ما الذى تعرفه عن امى ؟
ـ ان واحدة تأتى الى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم . .
ـ أشكرك . .
ـ ولكن الام التى تأتى بواحد مثلك يجب أن تندم مدى حياتها الثانية بعد الموت !
ـ وكيف ذلك ؟ .
ـ انت تجمع بين ماتقوله امك وبين مايقوله لص . . دون ان تفرق بين المجرم وبين التى أجرمت أنت فى حقها . .
ـ ومن الذى قال اننى اتحدث عن اللصوص . .
ـ أنت الآن . .
ـ آه . . انت فهمت ان هذه الكلمة معناها لص . . ان معناها السيدة المحترمة . . فهذه الكلمة عامية عندنا فى الجنوب . . فكيف لاتعرف ذلك وانت من الجنوب أيضا !

وكنت قد نسيت اننى من الجنوب . . ففى الليـــل يصبح أهل الجنوب مثل أهل الشمال . . مجرد اشباح جائعة تروح وتجىء . .

اذكر اننى عنـــدما قرأت قصة « فتاة روما » لصديقى الاديب الايطالى البرتو مورافيا . . هزتنى هـذه القصـة . . وطلبت منه أن يرينى هـذه الفتاة التى استوحى منها القصـة . . أو أية فتـاة شبيهة بها . .

وضحك الاديب الايطالى . .

وضحكت أنا أيضا لسذاجتى المفاجئة . . فأنا أيضا أكتب مثله . . وأتخيل . . وليس من الضرورى أن تكون للصور التى أرسمها أى وجود فى الواقع . . بل ان الادب الواقعى ليس هو الادب الذى ينقل الواقع نقل مسطرة . . ولكنه الادب الذى ينقل الواقع كما نراه نحن وكما نتخيله نحن . . ونحذف منه ونضيف اليه مايعجبنا . .

ولكن على الرغم من ذلك كنت اقف فى ميدان ايسديرا القريب من محطة روما : . واقول كانت المسكينة ادريانا بطلة قصة «فتاة روما» تقف هنا . . وعندكشك بيع الصحف . . وكانت تتوارى من البوليس . . مسكينة كانت جميلة . . رقيقة فقيرة . . ولم يكن عندها ماتبيعه

غير هذا الجسم .. وعندما قررت أن تعطى جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية .. نهايتها ونهايته ..

وقبل الفجر بساعة يجمع الليل بقاياه من كل شيء .. الناس يختفون فى بيوتهم .. وتختفى النساء تماما .. ويتأهب رجال البوليس الى العودة الى بيوتهم .. وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة .. ويظهر الكناسون بالمئات .. ويدفعون أمامهم أكداسا من مخلفات معركة الامس..وهى معركة كل يوم.. العلب والزجاجات الفارغة وأوراق الصحف والفواكه ويغسلون الارض .. أو يغسلون الارض التى تلمع كأنها سقف أو كأنها جدران .. أو كأنها أطباق تأكل عليها مدينة روما .. تأكل أهلها من الرجال والنساء .. كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتسحقهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد .. ويذوب النـاس .. وتبقى الشوارع حية حارة .. شديدة النهم .. تأكل ولا تشبع : تشرب ولا ترتوى .. تفضح وتستر .. ولكنها تتستر أكثر وأكثر ..

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود .. جاهز .. الحب جاهز .. العشق جاهز .. والشجار جاهز .. الموسيقى هى الهواء والغناء هو الماء .. والرقص هو المد والجزر .. والمرأة هى القمر الذى يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب .. كل ليلة .. على كل شارع .. على كل رصيف .. فى كل ساعة..

فى أحد الايام كنت فى مدينة بيروجه .. واخترت مقهى فى ميدان الكاتدرائية .. المقهى واسع عريض .. أنيق جميل .. فخم .. وأخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى .. قريبا من السور الحديدى الذى يضعونه حتى لا يهرب الزبائن .. أو حتى لا يهرب الى الزبائن أناس من الشارع .. واخترت هذا المكان لكى تكون الموسيقى بعيدة بعض الشيء .. فأسمعها اذا أردت وأتجاهلها اذا أردت .. على عكس الذين يجلسون الى الداخل فيشعرون أن الموسيقى مقررة عليهم .. وأنهم كأفراد الاوركسترا .. ولكنى قررت أن أكون متفرجا ومستمعا .. واخترت المكان بالقرب من الباب أيضا ..

ولما سألنى الجرسون : سيدى ؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا ..

ولما لاحظت أنه يسألنى ويرد على بصورة آلية .. تضايقت .. فهو لا يعرف أن المال الذى معى قليل .. واننى قررت أن أجلس هنا وأن أستمتع لأقصى درجة .. ومهما كان المبلغ الذى أدفعه تافها ، والبقشيش الذى سيتقاضاه أتفه ، فان هذا المبلغ كبير بالنسبة لأموالى .. وانه ليس من حقه أبدا أن يقف الى جوارى ولا يرانى .. وأن يستمع الى دون أن يتفضل مشكورا فينظر الى ذقنى التى حلقتها بعناية .. وملابسى النظيفة الانيقة والتى تدل على اننى أجنبى على درجة من الثراء .. أى اننى قادر على أن أعطيه بقشيشا أكبر .. ولكن ما هو هذا البقشيش الذى سوف أدفعه .. انه لا يزيد على عشرة قروش .. ولتكن عشرة قروش فما الذى أريده أن يفعل بهذه العشرة أو هذه العشرين ؟ أريده أن يعبرنى أن يحترمنى .. فقلت له : لا أريد شيكولاته ..

ــ حاضر .

ــ وان تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو ..

ــ هى الوحيدة التى عندنا ..

ــ أما البسكويت فهو الذى أريده بالشيكولاته ..

ــ هو الوحيد الذى عندنا ..

ــ وهل من الممكن أن أدعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا .

ــ ممنوع .

ــ انها طفلة صغيرة متسولة ..

ــ لأنها كذلك يا سيدى .

ــ فاذا اصررت .

ــ أنا متأسف .. ممنوع .

ــ ولكنى مصر على أدعو الى مائدتى المتواضعة مواطنة ايطالية

ــ مواطنة ايطالية ؟ !

وتركنى .. واتجه الى داخل المقهى ..

ولا أعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى وقفت امامى ومدت يدها عبر السور تبيع الصور الدينية وتماثيل لطيور وحيوانات .. وربما كان السبب الحقيقى هو أننى لا أريد أن أكون مجرد « كتلة » تشغل احد المقاعد .. فالجرسون لا يرى الا كتلة من اللحم والشحم على أى مقعد ..

ثم يسألها دون أن ينظر اليها .. ثم يختفى ويعود بالطلبات .. فهو عمل آلى .. وهو آلة .. والزبون شىء .. أى شىء ..

وتضايقت من أن أظل « شيئا » مدة طويلة ..

فأنا شىء فى كل مكان اذهب اليه.. لا الفت النظر ولا الأذن.. ولا العقل .. يرانى صاحب البنسيون فيخفى رأسه فى الورق يبحث لى عن جواب أو عن رسالة أو يعطينى مفتاح الغرفة .. وبحركة آلية يقول : صباح الخير .. أو أصبح على خير .. أو يقول تعليقا مضحكا .. وعندما يطلبنى التليفون فانه لا ينطق اسمى وانما يقول : نمرة ٢٠ هنا .. أو ليس هنا .. أو يقول : آه الفيلسوف هنا.. آه لقد خرج فى الصباح فيلسوفنا ولا أعرف كيف عاد الآن .. لعله شاعر الآن .. أو يقول : آه .. كتب أخرى .. لا أعرف هل ما يزال صاحبنا يأكل الكتب .. أو يبيعها .. آه .. من نمرة عشرين آه ..

ولذلك قررت الا اكون شيئا فى هذا المقهى .. وأن يدور بينى وبين الجرسون كلام .. وأن أثير قضية .. وأن تكون هذه القضية مخجلة لأحد منا نحن الاثنين .. فلا يزال الخجل أحد ينابيع الوجود الأخلاقى .. والاجتماعى .. وهذا الموقف اجتماعى وأخلاقى .

وعاد الجرسون ومعه مدير المحل .. وفى عينى المدير رجاء بألا أفعل ذلك .. وانه مستعد أن يقدم لهذه الفتاة أى طعام على حساب المحل ..

ولم أكن أريد أن أدخل فى مناقشة .. وانما فقط ان ينظر لى أحد فى عينى .. وأن ينتظر ما أقول .. ولذلك لم أتمسك بموقفى ..

ومددت يدى خلال السور الحديدى أعطيها شيئا ..

وقبل أن تمتد يد الفتاة قال لى مدير المحل : اشتر منها اى شىء .. فهى بائعة صغيرة جميلة .. ويجب أن تكون بائعة .. واذا تعلمت وكبرت فأنا أعدها بأن أجعلها تبيع الزهور هنا فى داخل المطعم ..

ولم تصدق الفتاة ما سمعت ..

وامتدت يدى تشترى وتدفع أكثر .. وامتدت يد المدير ..

وشكرنى المدير .. واعتذر الجرسون .. واستعجلت الآيس كريم فاننى أستحق التكريم .. وكرمت نفسى .. وانتقمت من الايطاليين الذين جعلونى « شيئا » سياحيا متواضعا !

ولكننى قبلت أن أكون شيئا وأقل من شيء عندما ذهبت الى جزيرة كابرى وفاتتنى الباخرة العائدة من كابرى الى نابلى .. ولم يكن معى جواز السفر .. فقد تركته فى الفندق فى نابلى .. ومعنى ذلك اننى لا أستطيع أن ابيت فى اى فندق .. ولا فى اى بنسيون .. ولا أستطيع أن أتمشى فى الشوارع حتى الصباح .. فكابرى ليست بها شوارع .. فالشوارع قصيرة جدا .. أو هى طرق تعلو وتهبط بعنف .. ولا استطيع ان أركب حنطورا يطلع وينزل طول الليل .. ربما كان هذا ممكنا فى فرنسا .. أو فى اليابان أو فى هونج كونج .. ولكنه ليس ممكنا فى كابرى .. ولم أعرف كيف أتصرف بسرعة .. ولكنى قررت أن أتخلص من الموقف الصعب .. فعند الثانية عشرة مساء بدأت المطاعم تقفل أبوابها .. ولكن الكباريهات ما تزال مفتوحة .. وبعد الكباريه ما الذى استطيع ان أفعله حتى الصباح .. او حتى الحادية عشرة عندما تعود أول باخرة الى نابلى .. انها ساعات طويلة جدا على الذى لم ينم منذ يومين ..

وبعد سهرة سخيفة جدا فى كباريه من الدرجة الثالثة خرجت الى الشارع .. الجو بارد .. الريح شديدة .. الموج مرتفع .. وليس فى الامكان أن أتحدث الى اى أحد .. وأحاول أن أكون ظريفا .. وقد أنجح فى المحاولة .. ولكن لا يمكن أن يكون أى أحد ظريفا معى ومتسامحا لدرجة أن يقول : ياه .. بس كده .. يا راجل اعتبر البيت بيتك .. أنا سأترك لك سريرى وأنام فى المطبخ .. خد راحتك !

أو يقول : آه .. طيب ممكن تنام فى الصالون ..

أو يقول : أعطيك مقعدا وتجلس عليه أمام الدكان .. وقبل ان تشرق الشمس يكون الشاى والسندوتش تحت قدميك !

أو يقول : الا تزعم انك قرأت كثيرا فى كتب الشطرنج .. مارأيك فى أن نلعب دورا حتى الصباح !

أو يقول : ضع يدك فى جيبى وأنا أصرخ .. وأقول : حرامى .. واذا لم أجد أحدا يمسكك .. فأنا أمسكك وأتركك فى القسم حتى

الصباح .. وفى الصباح أعتذر لك عما حدث وأقول اننى كنت مخمورا !

وطردت هذه الاوهام .. وبشعور غريب دفعت الباب .. وانفتح الباب .. ولم أر أحدا .. وفتحت عينى جيدا .. ولم أر أحدا .. وقلت للظلام الذى انفجر فى وجهى من داخل الباب الصغير : مساء الخير ..

وسمعت صوتا يرد التحية .. وفاض النور .. وظهرت مقشة كهربية .. وعلى المقشة انحنت سيدة عجوز ..

ـ هه .. وانت كمان عاوز ايه ؟ !

ـ نسيت جواز السفر .. وأريد ..

ـ أدخل .. واقفل الباب وراءك ..

ودخلت وأقفلت الباب ورائى .. واغرقنى النور .. أكثر .. وانفتح باب .. ووراء الباب وجدت شابا أعتقد انه هندى .. قد نام على الارض بعد أن خلع معظم ملابسه ..

وقالت العجوز : تنام هنا ؟

قلت : لا .. أساعدك ..

وضحكت وهى سعيدة : أنت ولد طيب !

وكانت هى أطيب منى عندما قدمت لى كوبا من القهوة السادة .. ثم كوبا آخر .. وأثناء وقوفى فى المطبخ وراء طابور طويل من الاطباق وأكوام من السكاكين والملاعق والشوك .. وحنفيات الماء تغلى من ورائى .. وبعد ساعة جاءت العجوز تقول : نصيحة يا ولدى .!

وتوقفت لأستمع شيئا جادا .

فقالت : اذا قلت لسيدة شيئا فلا تتراجع عنه .. وكل كلمة تقولها للمرأة هى حق مكتسب لها .. فالمرأة قد سمعت كلاما كثيرا ولم تجد الا أفعالا قليلة جدا .. لذلك فهى لا تكاد تسمع الكلمة حتى تتعلق بها كأنها آخر طوق نجاة فى الدنيا ..

ومسحت عينى انتظارا لتوضيح أكثر .

فقالت وهى ضاحكة : انت الآن طبعا نادم على انك أعلنت عن رغبتك فى مساعدتى هنا .. اذهب الى هذه الغرفة وحاول أن تنام

ثلاث ساعات .. سأوقظك فى السابعة ..

وتركتنى نائما حتى التاسعة ..

وعندما صحوت من نومى لم أجد أحدا فى البيت ولا حتى الشاب الهندى ..

وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل أمام البيت .. مناديلى وجواربى وقميصى ..

ما اسمها ؟ من هى ؟ أين هى ؟ لا أعرف الآن .. ولم أعرف حتى فى ذلك الوقت .. انها ايطالية طيبة .. انها أم طيبة .. بل أنها الطيبة كلها !

وكان لابد أن أنتظرها حتى تعود .. لكى أشكرها بكل ما تجدد فى جسمى ونفسى من حيوية !

وجاءت السيدة وكأنها لا تريد أن تعلق على ما حدث أو على وجودى . وانما قالت كأننى أحد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيدا ؟

قلت : شكرا لك !

وضحكت : سوف تنسى ..

وقلت : أنا سوف أنسى .. وأنت ليس عندك ما تذكرينه ؟

قالت : هذا ..

أى هذا الذى صنعته لى .. أو هذا الشخص الذى هو أنا ..

وعادت تقول : انك لم تكلفنى شيئا .. أنا أعيش وحدى .. والبيت خال .. والسرير خال .. ومنذ مات ابنى فى حرب الحبشة وأنا قد اتخذت هذا القرار .. وهو الا اقفل بابى فى وجه أحد .. وهذا هو السبب فى أننى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما .. والناس هنا يضحكون ويقولون : ان الباب مفتوح دائما .. وأنا غير موجودة دائما .. لاننى أذهب الى السوق وأشترى كل شىء لنفسى .. ولذلك أترك المحل معظم الوقت .. ولم يختف من بيتى عود كبريت واحد .. منذ عشرين عاما !

واتجهت العجوز الى صندوق فى الحائط وفتحته وأعطتنى طاقية من الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى .. ضعها على راسك .. الله يحميك .. ويرحم روحه فى السماء !

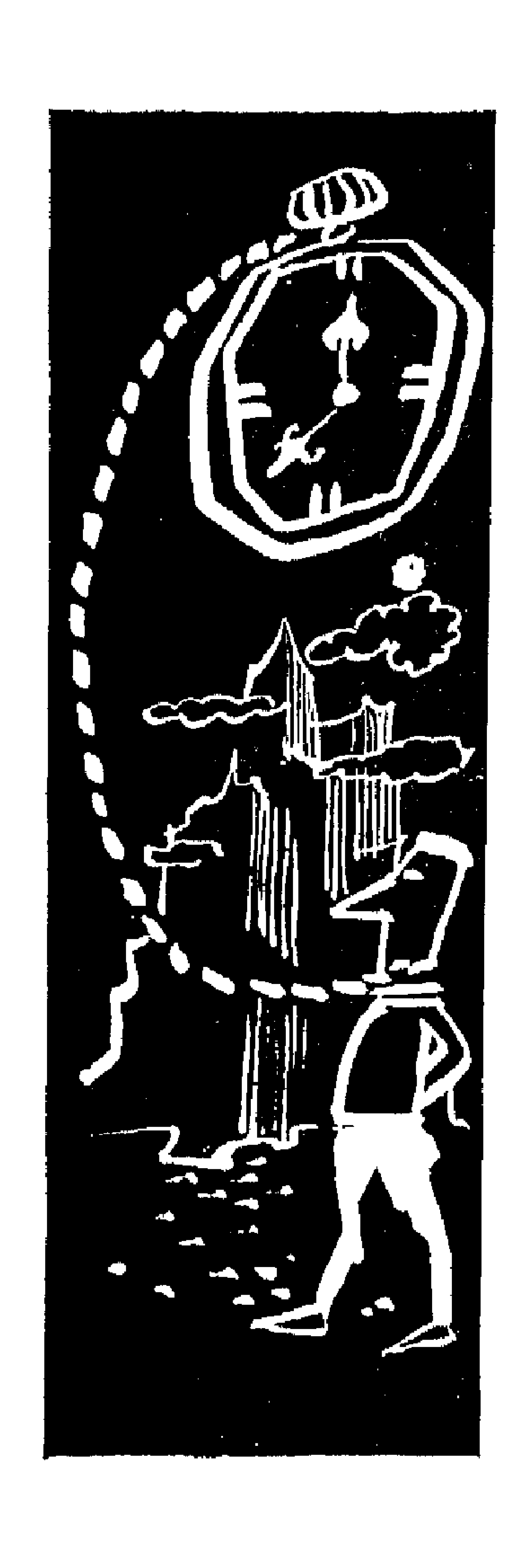
◎❖◎

ولا أعرف كم من المرات ذهبت فيهـا الى ايطاليـا .. ربما عشرين .. ربما ثلاثين مرة .. فهى فى الطـريق الذهاب الى دول الشمال .. وفى طريق العودة أيضا ..

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تجعل طعم ايطاليا كالخبز .. ولا مذاقها كالماء .. انها دائما جديدة .. انها بلاد سياحية .. اعتادت أن تكون عروسـا لكل سائح .. سواء أقام ليلة .. فهى عروس ليلة .. أو أقام شهرا .. فهى عروس شهر . . والدولة الايطالية تعلم انها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل سائح أوروبى أو أمريكى أو أفريقى أو أسيوى .. ولذلك فهذه العروس قد اتخذت أسلوب شهرزاد فهى تحكى كل ليلة قصة.. ملايين القصص لمليون شهريار ..

وأفلحت شـهرزاد الايطالية أن تؤكد لشـهريار الاجنبى أنه الوحيد الذى فى قلبها وعلى ذراعها وعلى صـدرها .. وانه فتى احلامها وكنز مستقبلها .. وانه أيضا فريسة شـباكها وضحية غرامها .. وانه تفاحة وانه بذرة فى تفاحة وانه قشرة تفاحة .. وأنه فى صنـاديق الزبالة بعد ذلك .. وكلما اغتسلت صناديق الزبالة . وامتلأت الصناديق بالتفاح . ووقفت السفن والطائرات تلقى ما فى بطونها من السـياح .. أقيمت الشوارع .. نصبت كأنها مسارح فخمة .. وانتظرت الوافدين الجدد .. بالقصص الجديدة .. بمليون .. بعشرين مليون شهرزاد .. هن أخوات وبنات خالات : صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ..

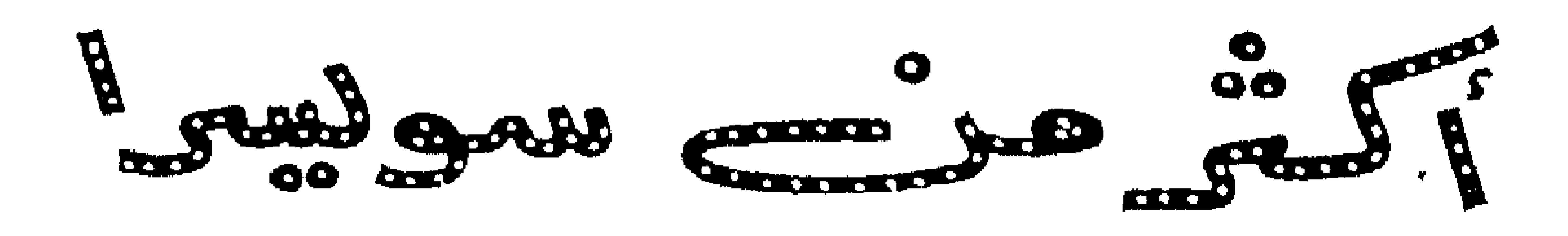




انها معادلة صعبة :

ان يعيشوا على مصائب

الانسانية .. دون ان تصيبهم !





يعني إيه : خوف ؟!

أول مرة ألمس فيها الارض السويسرية والجبال السويسرية واللحم والدم السويسرى عندما ذهبت الى محل البن البرازيلي فى القاهرة ورأيته .. رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشي على الارض ويدب .. ويحاول أن يؤكد لأحد من الناس أن الاسفلت يمكن أن تغوص فيه الاقدام .. وعلى الرغم من أن قدمه لم تترك أى أثر على أسفلت الشارع سليمان باشا .. فان هذا الرجل لم ييأس .. انه يحاول .. انه يمشي بسرعة ويدب . ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثواني وسط أناس يشبهون عقارب الدقائق وأحيانا عقارب الساعات والسنوات .. ولكنه ينفذ مخططا فى رأسه .. هذا المخطط جعله سليم الجسم .. متين البنيان .. فى الثمانين ويبدو كأنه فى الاربعين .. انها صحة .. انها سويسرا ..

وفى البن البرازيلي عندما رأيته فرحت .. وبلا تفكير مددت يدي أصافحه .. وبلا تفكير فرحت .. فقد رأيت هذا الرجل أنه الدكتور ران الذى كان يدرس لى اللغة الالمانية فى الجامعة

وظلت يدى ممدودة . وهو يسألنى : من أنت ؟

وظلت يدى ممدودة . فالرجل يرفض أن يسلم على شخص لا يعرفه .. ووضح من ابتسامتى التى تقلصت ... انها كانت ابتسامة تلميذ لأستاذه .. فتحولت الى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا .. ثم تحولت الى غضب مهذب من خواجة قليل الذوق .. ثم بسرعة تحولت الى اعتراف بالفارق بينى وبينه .. بين الشرق والغرب .. ثم الى تقرير فارق ثابت .. وبناء حائط جامد بارد بيني وبينه .. وعبر هذا الحائط البارد تشعبطت كلماتى لتقول له : أنا تلميذك فلان ..

ولم أحفل بعد ذلك بيده العنيفة التى امتدت لتصافحنى

ولتعتذر لى .. ولم أهتم كثيرا بأنه يقرأ لى مقالاتى.. وانه أعجب بقضايا أثرتها .. وأنه تمنى لو يلقانى ليناقشنى ..

وكانت كلمـاته مثل رصاص انطلق على لوح من زجاج يصـد الرصاص .. فتحولت الى مجرد طرقعة .. صوت وصدى .. ثم جاءت تحيته وهزته لرأسـه كمسـاحة تزيل المطر من فوق لوح من الزجاج ..

وفى البن الاسود ابتلعت هذا الموقف البايخ ..

انه موقف سويسرى ..

وهذا الرجل قطعة من أرض وشوارع ووديان وجبال وغرابة وصلابة وصحة وميكانيكية البلد التى أسمها سويسرا !

◎❖◎

ولم تتغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت الى سويسرا نفسها .. ففى بنسيون « الزيتون » بمدينة جنيف » أعجبتنى صاحبة البنسيون . فهى وحدها التى تطبخ وتنظف . وتزرع الحـديقة وتقلعها . وهى التى ترد على التليفون وتعيد تسـوية الغرف . وعندها بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك وتجامل ..

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى سـاعة فضية نظيفة . ولا علاقة لها بشىء آخـر فى هذا العـالم .. انها ست بيت .. أو صاحبة بيت .. وهذا يكفيها ..

فهى فى حالها .. وكل الناس كذلك !

سألتها : ألم تعرفى الحب ؟

قالت : وأنا صغيرة .. وانتهى كل شىء !

ـ ما هذا الذى انتهى ؟

ـ الحب !

ـ وكيف بدأ ..

ـ أنت تعرف .

ـ ولكن الذى لا اعرفه هو كيف انتهى ؟

ـ هو مات .. وأنا ما أزال حية !

ـ اختصرت الموقف جدا ! ؟

ـ أنا لم أختصره !

ـ ولكن الحب ليس حكما نهائيا .. انه حكم يمكن الرجوع فيه فالقلب الذى احب مرة .. يمكنه أن يحب مرة أخرى وبشكل آخر .. فالقلب كالساعة لا يدق مرة واحدة .. ولا يمتلىء مرة واحدة .. انه يدق دائما .. ويظل يمتلىء بأيدينا .. ويمتلىء بنفسه ..

ـ أنا ساعة تذكارية .. لا تدق ولا تمتلىء !

ـ ولكنك ما تزالين جميلة ..

ـ اذن .. ساعة تذكارية جميلة ..

ـ وتذكارية لماذا ؟

ـ فليس عندى وقت للحب !

ـ ليس عندك وقت .. من الذى عنده وقت ؟

ـ انت .. انتم ..

والحقيقة أن المشكلة ليست الوقت .. ولكن هى طبيعة السويسريين رجالا ونساء .. ليسوا خياليين ولا شعراء .. وانما هم أناس عمليون جدا .. وهم يفضلون القلوب الخالية على القلوب الثقيلة المليئة .. لان القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة. وهم يفضلون النظافة على أى شىء آخر !

وليس من الصدف أن تتفوق سويسرا فى صناعة الساعات .. انها صناعة الدقة . صناعة الزمن . صناعة الارقام والتروس والعقارب .. صناعة قطع الغيار الدقيقة .. صناعة الرقيب الحسيب الذى يعد عليك انفاسك .. ودقاتك .. وتربطه فى يدك .. أو يرتبط بك من يدك ..

ان حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة ..

فمن المألوف جدا أن تجد فى البيت السويسرى جدولا على الحائط .. هذا اذا انطبعت أفكاره على الحائط فى ساعة ندم أو قرف ـ وهذا الجدول نصه : الاثنين : اجتماع اللجنة المدنية .. الثلاثاء : اصلاح الزحافات .. الاربعاء : كوتشينة .. الخميس :

جمعية خيرية .. الجمعة : لجنة الحــزب .. السبت : السينما مع المدام ·· الاحد : الذهاب الى الجبال ··

ولو حدث أنك زرت أحد أصدقائك ـ ان كان في الامكان أن يكون لك أصدقاء سويسريون لاى سبب ـ في يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ الساعة الثالثة و ١٤ دقيقة ، وذهبت الى نفس الموعــــد بعد عشر سنوات فستجد صديقك في نفس المكان ·· من البيت··على الكرسى المجاور للنافذة متمددا بينما زوجته تروح وتجيء في البيت ·· وكل السويسريين يتمددون فى بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس للرجل السويسرى أى دور أو أى وزن في بيته ·· فهو عندما يدخل من الباب الخارجي ينتقل الى دولة أخرى ذات ســيادة عليه ·· الرجل وزوجته فى تكشيرة واحدة..وارتدى كل منهماملامح الجد والوقار .. مع أنه لا يوجد ما يبرر ذلك .. فهو رجل ظل يعمل طول النهار كالنحلة ·· لا يكف عن الانتقال من مكان الى مكان فى نظام ميكانيكى دقيق · وهى أيضا لم تكف عن الحركة من البيت الى الدكان ·· ومن الدكان الى السوق ومن السوق الى البيت ·· وفى كل غرف البيت ·· تضع طبقا هنا ·· وزهرة فى النافذة هناك ·· وعينها تلتقط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب .. وتنفخ وتنفض ·· والذى يرى الزوجة الســويسرية وهى تنفض التراب يخيل اليه أن السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الاطباق وأنهم سوف يأكلون على الارض ·· فالارض كالصينى النظيف ·· وكل شيء فى البيت يدل على اهتمام غير عادى ·· مع أن هذا الاهتمام يحدث كل يوم ··

اذن هذه الزوجة فى نشـــاطها ساعة محــددة ودقيقــة .. والزوج يتطلع هو أيضا الى هذا الموعد ·· انه موعد الغــداء ·· للاثنين طبعا وجـاء موعــد الغــداء ودخل الـزوج وفى نفس اللحظة التى يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ ·· كل شيء يتم بهدوء ·· هو يدخل وهى تخرج ·· هو يقعد وهى تقدم الطعام ·· هو يقترب من المائدة وهى أيضا ·· هو يأكل وهى تأكل ·· هو يمضغ وهى تمضغ ·· ·· كأنهما يعزفان لحنا غير موسيقى على نوتة موسيقية ·· أو لعل الرجل ـ خصوصا الرجل ـ عندما ينظر الى السقف من حين الى حين يبحث عن المايسترو الذى يضبط حركة الطعام من الطبق الى الفم ·· ومن الفم الى المعدة ·· أما الزوجة فتكتفى بمتابعة الزوج ولا داعى طبعا لان تنظر الى رجلين فى وقت واحد ·· فرجل مكشر أثناء الاكل يكفى جدا !

أما لماذا هو مكشر ٠٠ وهى أيضا ؟

هذا السؤال معناه : لماذا هو سويسرى ٠٠ وهى أيضا ؟

فالسويسرى ليس باسم الوجه ٠ انه متجهم ٠ جاد ٠ ناشف ٠ ضخم ٠ ولكنه منظم فى جميع الحالات ٠ أنا لم أر سويسريا يبكى ٠ لانى لم أجد هذه الفرصة السعيدة ٠ ولانه من الصعب على السويسريين أن ينفعلوا ٠ ولان يديه مشغولتان فان نزلت دموعه أضطر أن ينزع احدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل ٠٠ وكل هذا يؤدى الى ارتباك عام ٠٠ ولان الدموع اذا نزلت من عينه يجب أن تنزل بترتيب ٠ ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا فى ترتيب دموعهم ، ولذلك عدلوا عن البكاء ٠٠ لانه أما أن تكون عملية البكاء منظمة الدموع ، أو .. لا بكاء .. فلا بكاء !

الرجل السويسرى حريص على أن يكون فى حاله ٠٠

فالدنيا كلها تتمزق وتنهار فى حروب من مئات السنين وتظل سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهار ٠٠ واذا حاول انسان أن يهرب ، فالى سويسرا ٠٠ اذا حاول أن يتجسس فالى سويسرا ٠٠ اذا حاول أن يودع أمواله بعيدا عن الايدى والعيون ففى سويسرا ٠٠

وسويسرا هى البلد الوحيد فى الدنيا الذى لا يعرف الخوف ٠٠ تصور شعبا لا يعرف الخوف ٠ أناس لايخافون من اليوم ولا من الغد ٠٠ لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة ٠٠ ولا من الحرب !

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف ٠٠

لا تعرف الفزع الذى يدق على الباب ٠٠ لا تعرف الخط التليفونى الذى ينقطع لان أحدا يستمع الى التفاهات التى تقولها لاى انسان ٠٠

أناس لا يعرفون الشارع لانهم طردوا من أعمالهم ٠٠ لا يعرفون الاحالة على المعاش الا فى الثمانين ٠٠ لا يهتدى اليهم الموت الا فى التسعين ٠٠ يظل الموت يطاردهم فى الجليد وفى الوديان ٠٠ ثم يلهث وراءهم ولا يدركهم الا بعد أن يكون أى مصرى ولد معهم فى نفس اليوم قد مات من عشرين عاما !

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية ٠

والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية .. فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هى .. ففى سويسرا أربع لغات : الالمانية والفرنسية والايطالية والرومانش ـ وهى اللغة السويسرية التى يتكلمها عدد قليل من الناس ـ ولكن الدستور صريح فى أن يحتفظ كل انسان بلونه ودينة ولغته .. وهذه قضايا لا يناقشها أحد من الناس !

هذا قرار اتخذه الشعب السويسرى سنة ١٩٣٨ : أن نبقى على وفاق مع خلافاتنا !

وبعض المفكرين ثائرون على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا .. فهى ليست عضوا فى الامم المتحدة . فكأنها بذلك ليست عضوا فى أسرة . ليس لها دور . ليس لها وزن . ولا موقف . ومن الضرورى أن تكون عضوا له موقف ووزن .. وهذا رأى !

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد ..

وانما اتفقوا على أن يقول كل انسان رأيه .. ويتمسك به .. أما الاتفاق على رأى واحد فى هذه الخلافات ، فليس ضروريا .. والضرورى أن يختلفوا .. والذى ليس ضروريا أن يتفقوا على معنى الحياد ..

وقديما سألوا الحكيم كونفوشيوس : ما الذى تفعله لو كنت امبراطورا للصين ؟

فقال : أحدد معانى الكلمات !

ولذلك فمن المستحيل أن يكون كونفوشيوس امبراطورا لسويسرا !

هذا اذا كان من الممكن أن يكون هناك امبراطور على الاطلاق .. لان السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى .. وحرية اختيار الحاكم .. ولا يرون أن الفارق بينهم وبين الحاكم كبير.. واذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده .. فلاحاشية ولاامراء ولا خلفاء..بل أن زوجة الحاكم نفسه .. اى رئيس الدولة ليست لها صفة فهى مجرد « مدام .. » ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت فى الانتخابات .. فالمرأة لا تعطى صوتها ..والمرأة تتقاضى أجرا أقل من أجر الرجل ، اذا اتفقا فى كل شىء : المؤهل .. والوظيفة .. وساعات العمل !

والسبب هو : أيهما ينتج أكثر ..
في سويسرا يقولون : الرجل ..

ونحن لم نتفق على رأى فى هذه القضية .. لاننا لسنا سويسرا .. ولا يمكن أن نكون !

ولكن لا شيء يتم فى البيت أو فى الغيط أو فى الشـــارع دون سؤال الناس عن رأيهم ..
مثلا : اذا فرضنا أنك صاحب بيت فى سويسرا .. ولسبب ما .. قررت أن تهدم هذا البيت .. وبفلوسك تقيم بيتا آخـــر .. لا تنس أنك سويسرى وطنى مخلص .. وفلوسك موجـــودة فى البنوك السويسرية وقد جاءتك من طريق حلال .. وبهذه الفلوس تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر ..

وسوف تلجأ الى المهندسين والخبراء لهدم البيت .. وستلجأ الى المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر ..

ومع حسن نيتك فانك لا تستطيع أن تهدم بيتك .. وأن تبنى بيتك .. فهناك شروط كثيرة ..

أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسرى فى هذه المدينة أن بيتك يجب أن يهدم . وأنك لست صاحب نزوة .

واذا فرضنا انك صاحب نزوة وتريد أن تهدم بيتك وتبـــدد أموالك ، فما دخل الناس ؟

الناس فى سويسرا لهم دخل : فليس من حقك أن تزعجهم من غير مناسبة .. تهدم وتبنى .. وليس من حقك أيضا أن تطرد السكان بذوق لانك صاحب نزوة مالية ..

واذا فرضنا ان بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهدمه .. لا بد ان يتأكد للشعب السويسرى أن البيت يجب أن يهدم لانه قديم أو منهار .. ولان الخبراء أكدوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب أن يهدم . فاذا تقرر ذلك أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة طبيعة التربة .. وعملية جس التربة تتم بآلات حديثة.. ويتولاها مهندس أو عامل ماهر ..

ولا بد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبنى من دور أو دورين أو ثلاثة أو أربعة .. وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم فهذا يعترض لان اقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات.. أو أن هذا البيت اذا ارتفع سوف يحجب الشمس .. أو يمنع الهواء

.. ولا بد أن تلقى هذه الاعراضات اهتماما عاما .. ولم يحدث كثيرا ان أدت هذه الاعتراضات الى تعطيل بناء عمارة من العمارات ·· لا لان هذه الاعتراضات لا قيمة لها .. ولكن لانه يندر أن يهدم بيت ويقام بيت آخر في مكانه دون أن يكون هناك أسباب وجيهة جـــدا لهذه العملية المعمارية ··

وقد سمعت من سفيرنا في سويسره محمد توفيق عبد الفتاح أن السفارة أقامت جناحا ملحقا بالسفارة · وبعد أن تم بناء الجنـــاح فوجئت السفارة بأن احد الجيران السويسريين يشكو السـفارة الى القضاء لا لان السفارة اقامت جناحا ·· فهذا من حقها مادام الجناح قد أستوفي كل الشروط الفنية ·· ولكن لان لون هذا الجناح يؤذي العين ·· يؤذى عينيه ··

وقد رأيت هذا الجناح ·· وفتحت عينى فيه وفى ألوانه ولم أشعر بأى أذى ··

ولكن الذى ضايق هذا الجار الســويسرى هو أن الجنـــاح قد طلى باللون الابيض الرمادى ·· وهو لون غريب عن ألوان كل البيـوت المجاورة ·· فهذا اللون صارخ ·· تماما كالصوت الصـــارخ الذى يوجع الاذن ·· فهذا اللون يؤذى العين ·· فهو جزء من الضوضاء اللونية ··

ومادام الناس يريدون الهدوء الصوتى فى بيوتهم ، فهم أيضـا يريدون الهدوء اللونى والضوئى لعيونهم ..!

وأنا أحيى هذا السويسرى عشرين مرة .. مرة واحدة لان له رأيا ·· ومرات لانه مصر على هذا الرأى ولم يغير موقفه منذ ثلاث سنوات !

◉❖◉



هذه النقطة الجاهلة!



المشاهد الغريبة فى سويسرا أن تجد أحدا كريما متحمسا شهما.. وتحس لأول وهلة أنه ليس من أصل سويسرى، وأنه لابد أن يكون أجنبيا .. مع انه لا يوجد شيء أسمه « الاصل السويسرى » .. فالسويسريون يتكلمون الفرنسية ولا يشعرون أن فرنسا هى وطنهم الأم .. ويتكلمون الالمانية، وألمانيا ليست وطنهم .. والايطالية، وايطاليا ليست وطنهم الاول .. انهم خليط .. أو هم سلطة: طماطم وخس وخيار .. فى اناء من الكريستال النظيف الانيق .. ولكن عناصر السلطة تعيش معا؛ ويتكون منها هذا الطعام الشهى، ولكنها لا تختلط تماما .. وانما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح ..

ولذلك اندهشت عندما دعانى مسيو أحمد هوبر الصحفى السويسرى الذى أسلم وتزوج من سيدة مصرية سمراء رقيقة .. أنه شاب فى غاية الحيوية والحماس والدقة .. فى غاية السويسرية .. وهو واسع الافق .. وعلى المام دقيق بقضايا العالم السياسية .. وبقضايا الشرق .. وعلى فهم كاف بتاريخ الاسلام والمسلمين..وهو رجل كريم خدوم .. أو أصبح كريما .. وهو على خلاف السويسريين تجده هو رب البيت .. هو الذى يدعوك الى الطعام .. و « يعزم » عليك .. ويكاد من شدة حفاوته بك أن يأكل لك أيضا ..

ومن المؤكد أنه لا يريد منا أن ننهض بعد الاكل مباشرة .. هذا مؤكد . ولكن نظراته طاردة .. انها تكاد تسحب الطبق من يدك وتلقى بك على الباب الذى ينفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه..وعندما تسقط على السلالم النظيفة . وتتماسك وتخرج من الباب النظيف الى الشارع النظيف .. وتتطلع الى شقته تجده أنه قد أطفأ النور .. ودخل فى الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و ١٢ دقيقة !

لم يحدث شيء من ذلك . هذا أكيد .. ولكن ترجمتى الدقيقة لنظراته السويسرية تقول ذلك ..

واذا تحدث اليك في موضوع أدبى أو فلسفى أو تاريخى ·· بالفرنسية أو بالانجليزية أو بالالمانية فهو رجل شاعرى .. وهومفكر واضح ·· وهذا الحماس والوضوح يجعلك تنسى أنه سويسرى ·· ولكن عينه التى لا تبعد كثيرا عن النظر الى الباب تؤكد لك أنه من الضرورى أن تنهض ·· لانك سائح ولانه موظف ·· ولانك مصرى ولانه سويسرى ·· ولانه سويسرى غير عادى ، ولانه من الضرورى أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر عنده حتى الصباح ·· مثلا !

وهذا الرجل أحمد هوبر مختلف عن السويسريين فى شىء جوهرى جدا : انه يقنعك ·· ولا يحاول أن يعلمك !

ومعظم السويسريين لا يهمهم كثيرا أن تقتنع ·· انهم مثل المدرسين يقول كل واحد منهم كلمته .. ثم يمضى .. أومثل رجال الدين كل واحد ينشد لك موعظته ثم يرفع يديه الى السماء لتنتهز أنت فرصة اتصاله بالسماء وتمضى لحالك .. على الارض !

وهذا سر المتعة التى لا تنتهى فى الحديث الى المواطن السويسرى أحمد هوبر !

⊙❖⊙

وعندما ذهبت الى أحد الساعاتية فى سويسرا ·· وما أكثرهم ·· أنهم يشبهون مطاعم الفول فى القاهرة ·· ومحلات الحلويات فى دمشق ·· وقدمت له ساعتى أريد لها زجاجة جديدة ·· وأخذ الرجل الساعة ووضعها فى درج · وأعطانى وصلا · وقال : ليست عندى هذه الماركة !

قلت : لم افهم ..

قال : اننى لا اصلح كل انواع الساعات ، ولذلك يجب أن تذهب الى المحل الخاص بهذه الماركة ..

ومد يده الى التليفون وسأل أحد المحلات .. أو هكذا فهمت لانه يتكلم باللغة السويسرية التى هى خليط من الالمانية واللغة الرومانشية ..

وأعطانى عنوان محل آخر ..

وذهبت .. والمحل الآخر أعطانى ورقة على أن أعود فى اليوم التالى .. لان زجاج هذه الساعة يجب أن يستحضر من المصنع .

والمصنع خارج مدينة برن .. ثم ان ماركات الساعات السويسرية لا عدد لها .. ثم أن من حق أى انسان أن يصنع ساعة وأن يضع عليها الماركة التى تعجبه .. أما الماركات المشهورة فهى لا تصنع كل هذه الساعات التى تحمل ماركتها .. وانما الشركة الكبرى تعطى لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئوية تتفق عليها ..

وفى اليوم الثانى عدت ..

ووجدت الزجاجة ، وسألت كيف يمكن خلع زجاجة وتركيب زجاجة اخرى ..

ورأيت كيف .. وهنا ادركت أن الساعاتية عندنا هم أناس يصلحون بوابير الجاز .. أو البلاعات .. فلا توجد عند الساعاتية فى سويسرا : لا سكاكين ولا كماشات .. ولا أحد يستخدم أسنانه فى فتح الساعة .. لا لان صناعة أطقم الاسنان لم تتطور الى هذه الدرجة ، ولكن لان هنـاك آلات دقيقة رقيقة .. تلمس الزجاج فيخرج كما تخرج الشعرة من العجين .. بنعومة وبلا ضوضاء ..

ثم ان كل انسان قد تخصص فى شىء ..

ثم ان كل شىء يتم فى هدوء الساعة وبرودة عقاربها ..

وأهم من ذلك ان للسويسريين طريقتهم الخاصة فى الاهتمام بك والترحيب بخدمتك .. فهم لا يصافحونك بحـرارة .. ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه أو فى الايدى التى تضغط .. وأنت كسائح لا تطمع فى أكثر من الخدمات المجانية.. واعتقد انها بجاحة منك أن تطلب من الناس أن يخدموك مجانا .. وان يكونوا سعداء أيضا لذلك !..

⊙❖⊙

واذا كانت سويسرة بلدا لا يعـرف الخوف .. فهى أيضا بلد لا يعرف التوسع ..

فالارض محدودة من مئات السنين ..

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغله السويسريون .. ولذلك فهم يحاولون تجويد التربة رأسيا .. بعد أن ضاقت بهم أفقيا .

وهم لا يريدون أى توسع سياسى أيضا ..

والتوسع الوحيد الذى يحرص عليه السويسريون هو التوسع فى الخدمات وفى استثمار أموالهم فى الخارج .. ولذلك فالمورد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة .. التصدير الى الخارج والاستيراد والخدمات ..

وسويسرا قد تطورت فى صناعات كثيرة ، كما انها أول دولة فى العالم استخدمت الكهرباء فى ادارة كل أجهزتها تماما ، وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ ..

وهناك تواريخ أخرى مشهورة فى سويسرا ..

ففى عام ١٨٠١ أقامت أول مصنع للنسيج ..

وفى عام ١٨٢٦ أصدرت أولى عملاتها المصرفية ..

وفى عام ١٨٥٠ أنتجت أول ساعة لا تمتلىء بالمفتاح ..

وفى عام ١٨٦٧ كانت أول من أنتج اللبن المسحوق ويحمل اسم نستلة ..

وفى عام ١٨٧٧ انتجت الساعة ذات الزنبرك ..

وفى عام ١٨٩٧ انتجت الحرير الصناعى ..

وفى عام ١٩٢٣ كانت شركة ساندوس الطبية أول من توسع فى استخدام الاعشاب الطبية ..

وفى ١٩٢٥ عرف العالم أول انتاج للفيتامينات يحمل اسم شركة لاروش العالمية ..

واذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة .. فعندهم أيضا جنون الخوف من المرض . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحية بوعى .. على عكس الامريكان الذين يعرفون أن هناك مرضا .. أى مرض .. ويواجهون احتمال المرض بتعاطى الفيتامينات والعقاقير الوقائية .. ولا يفكر الامريكى فى المرض الذى يتقيه .. وانما هو يتقى كل الامراض الممكنة .. فمن المألوف أن تجد الامريكى يبتلع حبوبا واقراصا فى الصباح وفى المساء .. ويترك لهذه الاقراص أن تتولى حراسته ضد الميكروبات .. أية ميكروبات .. أما السويسرى فهو يعرف الامراض المنتشرة ويتقيها بحساب لا لأنه بخيل فقط .. ولكن لانه دقيق جدا ..

ليست صحته هو فقط .. ولكن صحة الحيوانات الموجودة فى البيت .. الكلاب والقطط والابقار وغيرها .. خصوصا أن هناك بعض الامراض المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات .. وهــذه الامراض موجودة ومعروفة ، والوقاية منها معروفة أيضا . ومرض قطة أو كلب مثل مرض اى طفــل يلقى نفس الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كأى كائن حى .. ووفاة قطة كوفاة انسان. أما اذا حدث أن داست احدي السيارات قطة . فهــذه كارثة للشارع كله .. وأحيانا للمدينة من أولها لآخرها .. ويتوقع الناس أن يروا صورة للحادث فى التليفزيون وقد امسك كل واحد منهم ورقة وقلما استعدادا للتعليق على الحادث .. أو على التليفزيون او على طلب للبرلمان للتحقيق فى هذا الامر الخطير ! .

أعرف صديقا مصريا جاء الى سويسرا من المانيا وتعلق أطفاله باحدى القطط . فاشترى القطة ، وبعد أسبوع واحد من اقامته فى سويسرا استدعاه البوليس لامر هام . التليفون يقول : لامر هام .. والاشارة من البوليس تقول : لامر هام .. ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس الى شقة الصديق يؤكد : انه هام وكارثة وطنية ! ..

وذهب الصديق المصرى .. وفوجىء بأن كل الاحتمالات التى دارت فى رأسه لا علاقة لها بأسباب الاســتدعاء الى البوليس ، فضابط البوليس يشير اليه أن يجلس لــكى يشرح له : ما الذى فعلته القطة فى الحديقة ؟

ــ ما الذى فعلته ..

ــ انها حفرت فى الحديقة .. ثم تركت بعض مخلفاتها . . وأنت تعرف ..

ــ أعرف . .ماذا فى هذا ..

ــ فى هذا كل شىء .. ان القطة مريضة ياسيدى .. عنــدها اسهال . تصور ! ..

ــ أستطيع أن أتصور . فما الذى افعله أنا .. أنا شــخصيا عندى اسهال ..

ــ أفهم ذلك .. ولكنك لا تستطيع أن تفعل ما فعلته القطة ..

ــ طبعا .. لا أفعل ..

ـ لماذا ؟ لان هناك مكانا مخصصا لذلك فى شقتك .. فأين اذن المكان المخصص للقطة ..

ـ هناك مكان .. ولكن القطة لم تفعل ..

ـ ولماذا لم تفعل .. لانها قطة غير متعلمة ..

ـ غير متعلمة ؟

ـ طبعا .. القطط يجب أن تتعلم أين تأكل وأين تشرب .. وأين تتخلص من كل شيء بعد ذلك ..

ـ ان هذه القطة قد اشتريتها ..

ـ كان يجب أن تسأل عن عادات هذه القطة قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف .. الخ ..

باختصار : هذه القطة عندها اسهال اضطرها الى أن تذهب الى الحديقة .. ولسوء الحظ رآها البواب .. وذهب البواب واخبر البوليس .. لان القطة مريضة . ومرض القطة مسألة صحية ، ولابد أن تعلم السلطات الصحية بذلك .. حتى لا تنقل العدوى الى بقية الحيوانات والاطفال ، والبواب يؤدى بذلك واجبا وطنيا ، ويراه كل الناس موقفا طبيعيا .. وهو لم يضع وقته فى الكلام مع صاحب القطة .. فصاحب القطة ليس البوليس وليس الادارة الصحية .. ثم أن صاحب القطة متهم ...

وانصرف الصديق المصرى ..

وفى البيت جاء الطبيب ، واخذ عينات من مخلفات القطة . وطلب التحفظ على القطة . وأخذ القطة فى صندوق . وبعد التحاليل ثبت أن القطة عندها اسهال حاد .. لانها قطة قد اعتادت على الطعام المسلوق .. فلما اكلت الارز بالسمن واللحم بالسمن .. ذابت احشاؤها فى الحديقة ..

ولا بد من علاج للقطة ..

ولا بد قبل العلاج أن تتعلم القطة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب أن تذهب القطة الى مدرسة ، وعلى حساب صاحبها .. وذهبت القطة الى المدرسة . وقررت المدرسة ان القطة فى حاجة الى شهر ..

وهنا قال صاحب القطة : انا لا أريدها ..

فكان رد ناظرة المدرسة : اذن ستظل القطة هنا تأكل وتشرب على حسابك . وتتعلم أيضا الى أن نجد لها أحدا يؤويها فى بيته ،

وضحك صاحب القطة وهو يقول : افرض اننى أخذت القطة واطلقتها فى الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : فى هذه الحالة لن يسكت البوليس على ذلك ولا الصحف .. وربما أدى ذلك ..

ولم تقل الى طرده من سويسرا — وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالانسانية ! ..

ولم تعد القطة الى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها .. فليس من السهل أن تأكل القطة وحدها الطعام المسلوق فى بيت يأكل فيه الاطفال الارز المفلفل وطواجن اللحم بالسمن .. ومن الصعب تربية قطة فى بيت به أطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى فى سويسرا الذى قد يؤدى الى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى ! ..

⊙❖⊙

وسويسرا بلد من الناحية الفنية مجدبة . فلا أحد يعرف اسم فنان كبير فى أى نوع من فروع الفن ..

ربما كان المهندس العالمى لوكوربوزييه هو أشهر سويسرى فى دنيا المعمار — وهو يأسف لذلك أشد الاسف . لا على أنه مشهور ، ولكن على أنه سويسرى .. هكذا جاء فى مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الاسف ..

وربما كان المثال بول كلى من أعظم صانعى التماثيل فى العالم ، وهو سويسرى ..

وقد حدث أثناء تصوير فيلم « الرجل الثالث » فى سويسرا من اخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز أن خطرت للبطل عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم . أما العبارة الصادقة فتقول : ان عصر النهضة الايطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد أسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت فى التاريخ .. ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام فى سويسرا قد أسفرت عن اختراع الساعة التى يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت ..!

ولكنها فى عالم الادب أحسن حالا ..

فقد ظهر فى سويسرا أديبان عظيمان بعد الحرب .

وهذان الاديبان من الالمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الالمانية . وهما لذلك يحركان الادب الالمانى والاوربى وهما قابعان فى الجبال العالية ..

وقد قابلت هذين الاديبين ..

وترجمت لكل منهما .. أيضا .

الاديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات : رومولوس العظيم . وقد ظهرت على المسرح وقام ببطولتها صلاح منصور وزوزو نبيل وأخرجها سمير العصفورى .. وترجمت له مسرحية « هبط الملاك فى بابل » .. ثم مسرحية : « الشهاب » التى ظهرت على مسرح الجيب ـ أي فى المكان الذى لايناسبها . وبالاخراج الذى لايتفق مع طبيعتها ؟!

وقد لقيت ديرنمات فى بيته .. والتقيت بزوجته .

وتحدثت اليه طويلا فى الادب العالمى وفى أدبه .. وهو رجل رقيق .. يبدو سمينا قصيرا .. ولكن بعد لحظات من الجلوس اليه تجد السخرية فى عينه وفى عبارته .. واذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه .. وهو رسام وموسيقى وشاعر ومهندس معمارى .. وابن قسيس .. وهو من أحسن أدباء اللغة الالمانية ..

أما ماكس فريش.. فهو أهدأ وأعمق.. وسخريته فلسفية.. وقد ترجمت له مسرحية « أمير الاراضى البور » ..

ومن الغريب أننى عندما ذهبت الى فريدريش ديرنمات قدم لى عشرات من فناجين القهوة .. ولم أتنبه الى هذا الاسراف . وظننت أنه هو الذى يحب القهوة كثيرا . ولما سألته عن السبب قال لى : الستم تحبون القهوة هكذا .. فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره ؟

ولما سألته عن الكتب العربية التى قرأها .. اعترف لى هو أيضا ـ كما اعترف لى قبل ذلك فى القاهرة البرتو مورافيا وسومرست موم ـ انه لم يقرأ غير ألف ليلة وكتابا للامير ارسلان .. وأن معلوماته عن العالم العربى مع الاسف قليلة .. !

أما ماكس فريش فقد زرته مع سفيرنا محمد توفيق عبد الفتاح .. وكان الرجل فى انتظارنا . فى غاية الصحة والحيوية . وهو يؤكد

لك أنه فى صحة جيدة ولا يشكو من أى مرض .. وقد اختار البيت الذى يقيم فيه على ارتفاع مدروس.. لانه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشا والضغط معقولا . . وانسب ارتفاع لنشاط العقل الانسانى . وكان قد أعد لنا زجاجة من الويسكى . . واعتذرنا . واعتذر هو أيضا لنفسه لانه لايشرب نهارا ..

وظهرت فتاة تروح وتجىء. ليست جميلة. فقال ماكس فريش: انها خطيبتى ..

وفهمت .. ان كلمة « خطيبة » هى لقب قد أعطى لهذه الفتاة بمناسبة تشريفنا ..

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا أديبا واحدا له قيمة عالمية .. ولا مفكرا واحـدا بعد جان جاك روسو له أى وزن دولى ..

ان سويسرا أرادت ان تكون منطوية على سـاعاتها وعلى أرضها وعلى مقشاتها.. وعلى خلافاتها الثابتة.. وأن تغلق عينها عن العالم .. وان كان العـالم لايغلق عينه عنها .. ضيقا وحسدا . وان تنطوى على هدوئها وطمأنينتها .. والا تمد يدها لتصافح الا من تعرفه .. وحتى لاتمد يديها فانها حريصة على ألا تعرف أحدا .. ويكفى ان يعرفها الناس .. وهى تريد أن يعرفها النـاس عاصمة النظافة : نظافة الارض والبيت واليد وهى البيئة التى لاينشأ فيها فن ولا أدب . فالادب كالنبات ينمو فى الطين ..

ويبدو أن بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفى لان ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات .. وفريش !



من القاعدة القوية الباردة

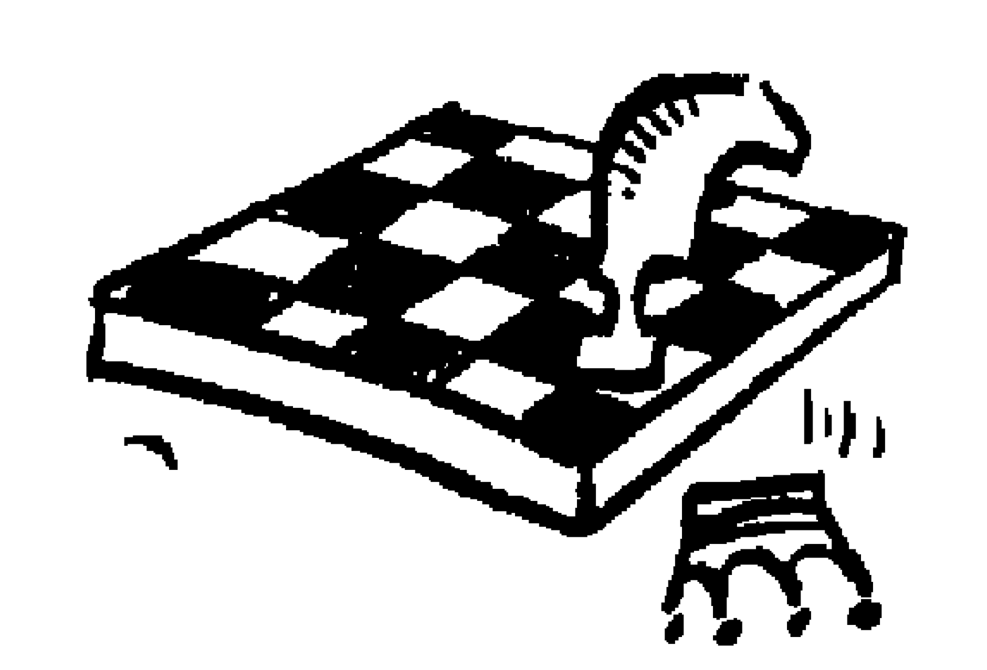
الى التطبيق الحار ..

من موسكو ..

الى هافانا !



من الكافيار الى الأناناس وبالعكس



كش ملك .. دائما !

كان الليل من نوع غريب .. باردا جدا ولكن ليس مظلما تماما .. ولا هواء ولا مطر .. ولكن برودة من طين .. أو طين بارد .. والناس أشباح .. أجسام سوداء ضخمة تروح وتجىء بسرعة ودون أن تصطدم بأحد .. وطبعا دون أن يتساند أحد على أحد .. أو يسقط أحد على الارض كما حدث لى مرتين وانا اتجه من لوكاندة أوكرانيا الى الميدان الاحمـــر الشهير .. ومن المؤكد اننى فى هذه الساعة من الليـل وفى هــذه الدورة والظلام والسرعة ، لن أرى الميدان احمر .. ولن أرى الميدان .. ولكنها فكرة خطرت لى قبـل أن أتأكد من غرفتى ان أذهب الى الميـدان الاحمر .. لاشاهد الكرملين الذى رأيت صوره وقرأت عنه . ولم أره ليلا وان أراه نهارا .. فهمت أحداث التاريخ الحديث كلها .. فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها الانسان فى القرن العشرين ..

الفندق دافىء .. والناس كثيرون ومن هيئات مختلفة أو من كل الهيئات .. والمشرفات على الفندق سيدات كبيرات فى السن .. وشىء من الصمت يربط الناس ببعضهم البعض.. ربما كان سبب الصمت أن أحدا لا يعرف لغة أحد .. أو الا داعى للكلام .. كأن الناس قالوا كل ما عنــــدهم وجاءوا هنا ليبتلعوا ألسنتهم أو ليغسلوها أو ليقطعوها أو يستبدلوها .. صمت .. حاولت أنا شخصيا أن أقول .. ولكن لم أجد ما أقوله .. ما الذى اريده ؟. لا شىء .. ما الذى أحتاجه ؟ لا شىء .. ولمن أقول ؟ لا أحد .. اذن فالصمت سلوك طبيعى ..

الباب ضخم .. المدخل ضخم .. كل شىء كبير وغليظ وعريض وطويل ..

واتجهت الى اليسار .. الى يســار الفنــدق .. وليس كل شىء

هنا يتجه الى اليسار فقط ‥ طبعا لا ٠ فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضا يمين ويسار ‥ ولكن اليسار فى الفكر ‥

والناس يروحون بخفة ‥ غريبة ٠ واتزان غريب ٠ وقد ارتدوا شيئا من الفراء على الرأس ‥ وأحذية غليظة وتغطوا ببالطو ‥ احتاطوا تماما للشتاء ‥ ولكنه ليس شتاء عندهم ‥ انه يوم من أيام السنة الدائمة الشتاء ‥ والارض من الطين ‥ ولا بد أن الضحكات التى تتعالى ورائى وأمامى بسبب أناس سقطوا على الارض ‥ مثلى ‥ انهم لم يعتادوا على المشى فى شوارع موسكو المطينة .. لا هم اعتادوا .. ولا حتى هذه الاحذية التى يلبسونها أحذية ‥ انها مثل الجوارب ‥ رقيقة ‥ ولا تمنع تسرب الماء ‥ أما البرودة فقد تسللت واستقرت فى العظام ‥ وأفقدتنى الاحساس بالبرد .. ولو أمسك انسان سكينا وقطع أنفى فلن أشعر ‥ ولو قطع أذنى فلن أشعر ‥ ولكن من المؤكد انه لوقطع لسانى فسوف أصرخ ‥ لان لسانى فى فمى ‥ وفمى دافىء ‥ أى أن أعصابى متنبهة ‥

ولا أعرف ان كان الروس يضحكون لهذه الالعاب البهلوانية التى نقوم بها فى الشوارع ‥ أو انهم اعتادوا عليها ‥ أو انهم مجاملون يضحكون فى سرهم ‥ أو انهم بدأوا يضيقون بها ويفضلون عليها الشقلبة المدروسة ‥

ووصلت الى الميدان الاحمر ‥ من المؤكد أنه ميدان ضخم واسع .. ولكنه ليس أحمر .. وهناك فوق مبنى الكرملين الضخم الذى يبدو مثل شبح هائل توجد نجمة حمراء ‥ واقتربنا من الميدان .. ومشينا فى الميدان .. وأشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين .. وهذا المبنى الى اليسار هو محل «الدوم» أكبر المحلات الاستهلاكية فى موسكو يبيع كل ما يحتاجه المواطن .. وان هنا قبر لينين ‥ وانه لابد ان نجىء فى ساعة مبكرة من الصباح لنقف فى الطابور ساعة أو ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوفيتية لينين الذى ولد من ٩٩ عاما .. والذى عند ما بلغه أن أخاه قد اعدم لانه تآمر على القيصر أقسم ان ينتقم ‥ وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الالوف من القياصرة والحاشية فى روسيا وفى كل العالم ! ‥

بعد ذلك كان لابد أن أعود الى الفندق ‥ لانه لا شىء يمكن عمله عند منتصف الليل فى موسكو ‥ لا شىء ‥ لا المشى فى

الشوارع نزهة .. ولا الذهاب الى المسارح ممكن .. ولا دار الاوبرا .. فهذه أماكن مكدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما .. ولا بد من تدبير وترتيب ... ولا يمكن الذهاب الى أى مكان آخر .. ما دام الانسان غير قادر على الرؤية .. فلا معنى لشىء .. اذن لابد من العودة الى الفندق .. ولا بد من النوم ..

الفندق كبير وليست له مزايا خاصة .. انه فندق أوربى .. فيه تدفئة واضحة .. وفى الغرفة راديو يطلق علينا الموسيقى .. وربما نشرات الاخبار .. لا تعرف .. فكل شىء بالروسى .. ومن نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع أوضح .. هناك أضواء .. وهناك كناسون ـ أو على الاصح كناسات ـ وهناك جهود عضلية لتكديس الثلج أو الطين على جانب من الشارع .. وتجىء عربات تحمل الطين أو الثلج وتنقله الى مكان لا نعرفه .. وهذه العملية لا تتوقف لا ليلا ولا نهارا .. والروس يفضلون الجليد على هذا الوحل .. فالجليد أنظف .. ومعهم حق ..

وفى الصباح بدا كل شىء واضحا ..

الشوارع واسعة جدا .. والطين الجاف أو الجليد المتسخ على جانب الشارع .. والملابس القاتمة القصيرة الفخمة تطل منها وجوه شقراء متوردة .. والعربات تروح وتجىء .. والسيارات والناس .. أو الناس كالسيارات .. أو السيارات كالناس .. كل شىء يتحرك لهدف .. متجه .. منطلق .. فلا مجال للتسكع الذى هو متعة فى كل العواصم الاوربية الاخرى ..

والافطار يجب أن نتناوله فى المطعم ..

ويجب أن نخلع البالطو وان نقدم لحارس البالطو سيجارا أو سيجارة يشكرك عليها بحماس ولهفة واضحة .. وفى المطعم يجب أن تقدم البونات .. فكل واحد معه عدد من البونات للافطار والغداء والعشاء .. وأجمل ما يمكنك ان تتناوله فى الصباح هو كوب اللبن .. انه لبن دسم .. أما القهوة او الشاى أو البيض والزبدة فهى كلها أطعمة عادية .. والخبز هنا أبيض وأسود . الاسود ألذ

وأمام الفندق تجمعنا .. وفى اتوبيس ركبنا .. والى مترجمة تتحدث العربية ـ أو نوعا منها ـ أعطينا أذاننا لنسمع منها القليل جدا عن العاصمة موسكو .. فلسنا فى حاجة الى ان نعرف منها

الكثير ، لاننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيـــا وعن الشعب السوفيتى •• وكل ما ينقصنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة •• مثل تمثال من هذا •• انه تمثـال الشـاعر الافريقى الاصـل بوشكين أو شارع جوركى •• وجوركى اسم قد اطلق على كثير من الشوارع والمتاحف والمكتبات ••

وأروع ما رأيناه فى موسكو هو متحف الرحلات الفضائيـة •• ان هناك تماثيل لتخليد يوم اطلاق أول سفينة فضـاء الى العـالم الخارجى •• يوم ٤ اكتوبر ســنة ١٩٥٧ وكان أول قمر صنـاعى روسى اسمه « اسبوتنك » •• وكان وزنه ١٨٤ رطـلا وقطره ٢٢ بوصة وينطلق بسرعة ١٨ ألف ميل ويقطع مداره حول الارض فى ٩٦ دقيقة وأقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا وأقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا• وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ ••

وفى الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابهاللصوت الذى كان يبعث به الى الارض من الفضاء الخارجى •• ورأيت له نموذجا فى المعـرض الدولى ببروكســل •• وفى متحف الرحلات الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر •• وللقمر الذى انطلق به جاجارين •• وسفن أخرى كثيرة ••

ومن الواضح ان هذه السفن ليست كبيرة •• انه سجن علمى ضيق••ولكن المشكلة والصعوبةهىأن هذه السفينةكلما زادحجمها ووزنها احتاجت الى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبيـة الارض •• ثم اعادتها الى الارض سالمة •• والنظريات العلميـة لارسال واستعادة سفن الفضاء موجودة عند الروس والامريكان •• ولكن الروس تقدموا على الامريكان فى صناعة الصـواريخ وفى مادة الوقود •• ولذلك فالروس يطلقون احجاما أكبر وأوزانا أثقل ••

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك •• لان الانسان لا يفهم شيئا من هذا الذى أمامه •• فهى براميل دائرية وتخرج منها بعض الاسلاك •• ومن المؤكد أن الروس ــ وهذا طبيعى ــ قد جردوا هذه السفن من كل ما يكشف عن الاجهزة العلمية المعقــدة التى بها • فهى سر •• ولا أعرف ان كانوا فى أمريكا يعرضون سفن فضائهم فى أى معرض •• ولكنها أسرار •• وحرب معلومات •• ولا بد أن هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلما •• وواضح أن التراجمة الذين يفرجوننا على هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منهـا

شيئا ·· وهذا هو سر عدم الحماس فى الشرح ·· فلا يمكن أن يقال انهم تعبوا من الكلام فنحن ما نزال فى ساعة مبكرة ·· ومن الخير أنهم فعلوا ذلك فنحن لا نفهم شيئا من هذه العمليات العلمية الباهرة ···

وفى الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له ·· ولكن ضحك بحساب وبرفق · فقد التفتت المترجمة الروسية تقول : غدا نلتقى فى صحن الدار فى الساعة التاسعة !

قالتها باللغة العربية طبعا ·· ومعنى هذه الجملة : غدا نلتقى فى بهوالفندق فى الساعة التاسعة · وحاولت ان أفهمها ان « صحن » هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها ·· وان الدار أفضل منها كلمة الفندق · ولكنها أصرت على الدار وعلى الصحن ··

وعرفت بعد ذلك أن لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شيء : فمثلا : النافذة ·· عندها هذه الكلمة فقط .. فاذا قلت لها : الشباك لا تعرف معنى هذه الكلمة ..

وفى صحن الدار فى اليوم التالى التقينا ·· وركبنا الاتوبيس الساخن ودار بنا فى شوارع موسكو ·· وأهم ما رأينا هو محطة المترو ·· انها أجمل وأعظم محطة مترو فى العالم كله ·· فى غاية الفخامة ·· ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها ·· ومن النادر أن يصور فيلم فى موسكو لاتظهر فيه هذه المحطة.. جميلة وأنيقة وضخمة وتكاليفها لا يمكن حصرها .. الرخام والنجف الكريستال .. وعربات المترو ·· والمصاعد والسجاجيد ·· تحفة معمارية هندسية لا نظير لها ··

وفى الليل ذهبت الى السيرك ··

واكتشفت اننى وقعت فى خطأ فظيع.. فقد ارتديت جاكتة فوق بلوفر فوق بلوفر ·· وفوق الجميع بالطو ·· وعلى الرغم من أن الناس حولى قد خلعوا البلاطى وتركوها فى أماكنها الخاصة قبل الجلوس فى أماكنهم ، فانه من الضرورى أن احتفظ بالبالطو لاننى من غير كرافته · ولا بد من البدلة والكرافتة فى المسرح والسينما والاوبرا وأى مكان يذهب اليه الانسان ·· ولذلك تسترت بالبالطو على هذه الغلطة الفظيعة ..

ومثل هذه الغلطة يقع فيها كثيرون من الناس فى القاهرة ··

فيذهبون الى حفلات السفارة السوفيتية والدول الاشتراكية بالقميص والبنطلون أو ببدل من غير كرافتة.. ولكنهم يجدون الدبلوماسيين الاشتراكيين فى غاية الاناقة ·· وبالكرافتة ·· لانه لا علاقة للبهدلة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن ·· الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط ·· للمجتمع العلمى ·· وليس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم .!

والروس قد برعوا فى كل فنون الرقص الاستعراضى ·· وفى رقص الباليه ·· والباليه الروسى هو سيد الباليه فى العالم .. وقد رأيت فى القاهرة الراقصة العظيمة تمارا تومانوفا .. وأولاتوفا .. وليبشنسكايا .. وغيرهن ..

وعلى الرغم من المظهر المتجهم الذى يبدو عليه الروس فى الشوارع ــ أنا لم أرهم الا فى الشوارع ــ فانهم فى الملاهى يضحكون من كل قلوبهم ·· ككل الناس ··

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد بحبحت عن نفسها قليلا·· وقد ذابت هذه الجهامة ومعها الجليد .. ومعهاذلك الطابع القاسى الذى يتسم به الروس أو الذى التصق فى أذهاننا عن الروس الى حد ما !·

وفى المطاراستمعت الى الموسيقى الامريكيةالحديثة : روكاندروك ·· تشا تشا ·· والتويست ·· أيضا ·· وقد أدهشنا ذلك ·· وأدهشنا أكثر أن معظم البائعات فى المطار يحرصن على البيع ويتنافسن .. وفهمنا ان كل واحدة لها عمولة على البيع ..

وقد حاول أحد الاصدقاء ان يشترى بشرط ·· وكان الشرط هو أن يلتقى بالفتاة يوما ما وفى مكان ما ·· وأمسكت به وقلت له : هل تريد بدولار واحد أن تستغل مبدأ الحافز الفردى الذى نادى به ليبرمان أسوأ استغلال ·· بدولار واحد ·· ومن أول فتاة ومن اول لحظة ··

وكانت نكتة الرحلة كلها ··

وفى الفندق تعشينا ورأينا شباب موسكو يرقصونالتويست.. وصفقنا طويلا للشبان ·· ولا أعرف بالضبط ما الذى صفقت له ·· هل لانهم يرقصون رقصا أمريكيا ·· ومعنى ذلك ان الفن للجميع ·· وانه لا يوجد رقص أمريكى ورقص روسى ·· هل أريد أن

أشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص .. أى رقص هل المفاجأة أدهشتنى .. وأنا اصفق لمن اذاب الجليد بين الاعداء .. الامريكان والروس .. هل أصـــفق لخيبتى لاننى نسيت ان ألبس الكرافتة وظللت الوحيد الذى خلع البالطو وزرر الجاكتة ورفع ياقتها الى أعلى حول العنق .. هل لانهم فعلا فى حاجة الى تشـــجيع لان الرقص الذى أراه ليس انسيابيا .. انه عنيف .. انه عملية اقتلاع فتاة والقاؤها على الارض ثم العدول عن ذلك فى آخر لحظة .. ربما كان ذلك .. أو كان أى شىء .. او كان الطعام اللذيذ الذى تناولنـــاه على مائدة فخمة ضخمة .. أريقت فيها ألوف الاكواب من الفودكا ومئات العلب من الكافيار .. وكان ذلك أول الاحساس الحقيقى بأن هذه هى موسكو ..

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى واضح ... وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد ..

ولم يكن أمامنا وقت طويل نضيعه أو نقضيه فى ليل موسكوأو فى نهارها .. فلا بد أن نعود الى المطار .. ومن المطار نستقـــل الطائرة الضخمة الى كوبا حيث يعقد مؤتمر القـــارات الثلاث .. ونحن بعض وفوده المسافرة من القاهرة ..

الطائرة ضخمة ومرتفعة جـــدا .. وذات ثمانيـــــة محركات .. المحركات مزدوجة .. اثنين .. اثنين .. ويتحركان فى اتجاهين متعاكسين .. لماذا ؟ نظرية علمية تقول بان هذا اذا حدث ازدادت قوة الاندفاع .. لم أسأل أحدا عن هذه النظرية ولم أفكر فى كيفية تطبيقها ...

الطائرة من الداخل كالسفينة .. مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة .. وعلى الجوانب من الامام غرف طاقم الطـــائرة .. وفى كل مكان لوحة شطرنج .. انها لعبة الروس .. ولماذا اختاروها لا أعرف .. هل لانها نوع من التكتيك الصامت المتجهم .. هل لانها لعبة تنتهى عادة بمقتل الملك .. يجوز وهم متفوقون فيها أيضا ..

وفى جو ملبد بالسحاب .. وفيه عواصف باردة .. أو برد عاصف اتجهنا الى الطائرة .. أما حقائبنا فمن المألوف اننا لانعرف عنها أى شىء .. أنها تدخل وتخرج وتنتقل الى الفندق دون أن نعرف عنها شيئا . وليس من الضرورى أن نعرف .. لانه لاخوف على ذلك .. فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة . وليس من شأنك أن تعرف ماذا

جرى لها .. فصيانة البلاد من شأن الناس آخرين مدوبين وعارفين وفى غاية اليقظة .. « بس اركب انت .. اركب ! » ..

سمعتها من ورائى .. وركبت . وجلست الى جوار النافذة . ولم أعرف من أحد كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الى .. الى لا أعرف الى أين ؟

اركب ! ركبت .. اقعد قعدت .. اسكت ! سكت .. «نام» .. لا أستطيع .. كل .. اشرب ! .. لا مانع : العب شطرنج ! ممكن !

وبعد ساعة أو ساعتين . . اضيئت انوار الطائرة .. وجاءت صوانى الاكل .. لحم وكافيار .. وخبز وسلطة وزبدة .. ولست متأكدا فى هذه اللحظة ان كان الذى قدم لنا الاكل رجالا أو نساء.. فالطائرة ضخمة ولا تهتز .. ولا أحد يرى أى شىء من النافذة .. ولا يسمع أى شىء .. ولا أحد يقول لك أى كلام .. والحقيقة انه لاضرورة لاى كلام . فما الذى يمكن أن يقال لك .. نحن متجهون الى القطب الشمالى . وليلا . فلا شىء يمكن أن يقال . .

وأحسسنا بأن الطائرة تهبط .. هكذا دون أن يلفت نظرك أحد .. ويبدو ان صناعة الطائرات متقدمة فى روسيا جدا .. فهى وسيلتها الوحيدة الى الانتقال فى أراضيها الشاسعة ..

ومن النافذة تنظر الى لاشىء .. لاشىء يمكن رؤيته.. انه سواد .. أو بياض.. أوألوان رمادية شاسعة واسعة لا أول لها ولا آخر.. وهبطت الطائرة . ومن النافذة لاترى أى شىء .. وان كانت الارض بيضاء ثلجية .. وهناك مصابيح تعكس صورة لبيت صغيرة .. أو مطار صغير .. أو أى شىء صغير ..

وانفتح باب الطائرة . ونزلنا . وكانت درجة الحرارة عشرين تحت الصفر .. وهذا الرقم لايمكن ان يكون له أى معنى أو دلالة عندك الا اذا ذهبت الى هذه المناطق من العالم .. وخرجت برأسى وفقدت الاحساس فورا برأسى .. ان شيئا أبيض قاطعا قد فصلها عنى فى نفس اللحظة التى أخرجتها من باب الطائرة .. ونزلت اترنح بلارأس.. فلم أعتد بعد أن أكون مقطوع الرقبة.. ولمحت عند نهاية السلم رجلا روسيا عارى الوجه وقف ينتظرنا .. والغريب انه يضحك .. ياخبر .. هذه أول ضحكة فى منتصف الليل وفى القطب الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة .. وقد ذكرتنى بضحكة أخرى تشرفت بها فى هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو .. وهى قطعة من

الثلج المخلوط بالنبيذ وقد انتظرتها ساعات ولم تظهر الا دقيقة لتقول لى : ازيك يا انت .. وهنا انخفضت درجة حرارتى الى عشرين تحت الصفر !

وفى داخل المطار الصغير كان كل شيء دافئا جدا .. من أين اتوا بهذا الدفء .. وفى كل مكان لوحات للشطرنج .. ويبدو انها اللعبة الوحيدة التى يعصر فيها الانسان نفسه .. ويتآمر على الملك بصورة عسكرية صامته ..

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا الشاى .. وكان الشاى خفيفا . وحاولنا أن نشترى منها شيئا ولكنها أصرت على أن البيع بالعملات الصعبة .. وحاولنا عن طريق مترجم أن نقول لها : اننا ضيوف .. وعابرو سبيل ـ على الرغم من أنه لم يكن هناك سبيل ـ ولكنها أصرت وبشدة ونهائيا : بالعملات الصعبة فقط !

وهذا معناه ان هذا المطار مكان سياحى .. !

سياحى وفى القطب الشمالى ؟ يجوز فنحن لسنا رواد القطب الشمالى .. ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا .. فكوبا معزولة تماما عن امريكا اللاتينية . ولا سبيل الى الوصول اليها من امريكا التى تبعد عنها ٢٥٠ ميلا الا عن طريق أوروبا .. اى الا عن طريق الوف الاميال .. فلابد ان يكون هذا المطار الصغير الدافىء الذى أقيم حديثا مكانا سياحيا هاما !

وقد تصورت ان الحصول على كوب من الشاى بعد ذلك أمر صعب فشربت كوبا آخر .. وقد اعدت هذه السيدة كل شيء لاستقبالنا .. الشاى .. والشاى .. وابتسامة لقاء .. وابتسامة وداع .. وعدنا الى الطائرة .. وحدث بالضبط ماحدث لى قبل ذلك .. عندما أخرجت رأسى من باب المطار .. طارت رأسى .. ومشيت هذه المسافة القصيرة على أرض جليدية نظيفة .. وبعد أن دخلت الطائرة .. تلمست رأسى فوجدته فى مكانه .. وظل كذلك الى أن وصلت كوبا .. واعتقد انه بقى فى مكانه .. وان كانت تصرفاتى تدل على أن خللا حدث فيه !..

فى الطائرة وجدنا شيئا نتسلى به ..

ففى أوقات منظمة تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من الطعام . وكنا نوقظ زملاءنا النائمين .. لكى .. يفطروا أو يتغدوا .. أو يتعشوا .. نحن لانعرف فالدنيا ليل دائم ..

وفى اللحظة التى نجد أمامنا الطعام ننظر من النافذة ؛ لانجد شيئا قد تغير .. فنحن فوق السحاب .. ولا نرى لا شمساولاقمرا .. ولكن لابد أن هناك أشياء كثيرة تجرى تحت السحاب لانعرفها .. ربما طلعت الشمس .. وتغطت بهذه البطاطين القاتمة من السحب .. لا أحد يعرف ..

وعندما أشرقت الشمس اضيئت الانوار وقيل لنا : طعام العشاء .. وسألت مستخدما بعض الكلمات الروسية القليلة التى عرفتها من القاهرة ودرستها فى الطائرة فقيل انه العشاء .. نعم العشاء كما سمعتها . وامسح عينى وانظر من النافذة وأشير الى قرص الشمس ..

ويكون الجواب : نعم .. ولكنه موعد العشاء فى موسكو الآن ..

العشاء فى موسكو .. وبعد ساعة نتناول الافطار فى كوبا .. جميلة جدا هذه اللعبة بعقارب الساعة !

⊙❖⊙



رقص وبن وثورة !



من أمريكا اللاتينيـــة نقترب من الدفء والضوء والالوان والاشجـار والحـلاوة والمرارة ‥ وكل الالوان الصارخة فى كل شىء ‥

والارض كما تبدو من الطائرة لونهـا أحمر ‥ وقد رأيت هذا اللون قبل ذلك فى آسيا ‥ فىالهند وفى أندونيسيا والفلبين ‥ وفى أستراليا أيضـا ‥ وهـذه الاشجار الاستوائية أعرفهـا ‥ وطعمها على لســانى ‥ وذكرياتها حية فى رأسى ‥ ومجرد رؤية أشجار جوز الهند يحررنى من ملابسى ‥ ويردنى الى أصلى ‥ انسان بدائى عريان ‥ أو انسان قريب الشبه من القرود ‥ أو قرد ‥ فقـد تسلقت هـذه الاشجـار فى جزر هاواى ‥ ونمت عليهـا ‥ وكدت أغرق عندما كبس على النوم ‥ وتوهمت أننى على سرير ففردت ذراعى ومددت ساقى ‥ وغريزة البقـاء وحدها هى التى جعلت يدى على النخـلة المنحنيـة على سـطح ماء المحيط الهادى ‥ ولوسقطتفىالماء لغرقت ‥ لانى لا أعرفالسباحة ‥ وقيل لى بعد ذلك أن الماء يبلغ المترين ‥ وانه لولا ستر ربنا ‥ لكنت وكنت ‥ فالحمد لله على الستر ! ‥

وهذه الرطوبة الشديدة فى مطار كوبا أعرفهـا ‥ أحسستهـا على قفاى فى جاكرتا ‥ حيث الرطوبة تصل الى ٨٠ ٪ وأحيـانا الى ١٠٠ ٪ ‥ وقد التصقت ملابسى من الرطوبة ‥ ولكن هنـا يوجد دفء ‥ وتوجد حرارة وحياة ‥ وهنا ناس ‥ سمر ‥ بيض ‥ رجال ونساء ‥ وينظرون ويتفرجون ‥ وهنا اعلام ‥ ونحن هنا عرسان ‥ وهذه زفة سياسية ‥ هنا ينعقد « مؤتمر القـارات الثلاث » لادانة الاستعمار الامريكى الذى يريد أن يخنق كوبا ‥ وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلهـا ‥ وفيتنام ‥ وغيرها

وغيرها ·· وكوبا هي هذه الدولة الصغيرة التي تتحدى أكبر دولة في العالم وفي قلب أمريكا وعلى مدى ساعة من طائراتها ·· ودقائق من صواريخها ·· ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضي على حرية الانسان الصغير في أن يقول : لا .. وان تجعله كلمة «لا» أكبر من أي كبير · واستطاعت كوبا أن تقول لأمريكا : لا ·· ولا تزال تقولها !

وأحسست أني قريب من الارض ·· فعلا ·· هذه أرض ·· وليست سحابا ولا ضبابا .. وهذه سيارة واسعة تنفلت .. وهذه أعلام ·· وبيوت جميلة ·· وشوارع واسعة ·· وهذه هي أول أرض رآها كولمبوس في سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند ·· ووصف هذه الارض في مذكراته : بأنها أجمل وأروع لون أخضر رآه في حياته ··

وكوبا جزيرة لها شكل تمساح ·· وحول هذا التمساح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة ·· ومساحتها مائة ألف كيلومتر مربع ·· أي أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدنمرك وسويسره وبلجيكا ·· وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير ··

وأقرب الدول اليها هي هايتي – على مدى ٧٧ كيلومترا – وجامايكا على مدى ١٤٠ كيلومترا ··

وفلوريدا الامريكية على مدى ١٨٠ كيلومترا ·· ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات ضخمة يرغمها بعض الركاب على الهبوط في كوبا تحت تهديد مسدس صغير ·· وهذه هي أشهر اللعب التي يتسلى بها أهل كوبا هذه الايام !

وهناك لعبة أخرى هي أن هناك سفينة تجسس أمريكية تقف في مواجهة العاصمة هافانا ·· خارج المياه الاقليمية ·· منذ سنوات ·· تلتقط الاشارات الداخلة والخارجة من كوبا ·· والرجعيون الكوبيون يفقدون أعصابهم اذا اختفت هذه السفينة ·· وكثيرا ما أطلقت شائعات بأنها اختفت فأطل الناس من النوافذ ليتأكدوا ·· وليتأكد الواقفون في الشارع أن هؤلاء رجعيون !

لم أشعر بغرابة في هافانا ··

هذه الارض كأني رأيتها · هؤلاء الناس كأني أعرفهم ·· هذه الاشجار ·· هذا الزحام ·· تمنيت أن أبقى شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع ··

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذى تغير اسمه وأصبح « هابانا الحرة » ــ أى هافانا الحرة .. والفاء ينطقونها هنا باء ..

وهذه أول مرة أنزل فى فندق هيلتون فى أى مكان فى العالم .. والفندق كان مقفلا وفتحه الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من القارات الثلاث : آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية .. وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية الاعضاء الوفود ..

ومن أول لحظة تحس أن كل شيء فى هافانا قد أعد للحفاوة السخية بأعضاء الوفود .. ففى استطاعتك أن تدخل أى مكان .. أى محل .. أى مسرح .. أى سينما .. كل شيء قد أعد لك ويعرفك وينتظرك .. وكل الناس الذين حولك شبان .. لان كوبا شابة .. ورئيسها كاسترو شاب أيضا .. وأخوه شاب .. وجيفارا زميله فى الكفاح شاب .. كان شابا .. والذين تراهم من الشبان والشبات تلاميذ فى مدارس أو جامعات .. أو موظفون صغار .. كلهم جاءوا ليخدموك .. كل ما تريد .. حتى الفندق تستطيع أن تمسح حذاءك وتحلق شعرك على حساب الدولة ..

وكل شيء منظم ودقيق .. المطبوعات والمنشورات والصور ..

حتى عندما جلست مع الاديب الايطالى البرتو مورافيا وزوجته الاديبة دانشيا ماريانى وطلبت التقاط عدد من الصور لنا .. أخذت الصور وطبعت وأرسلت وبسرعة ومع الشكر الجزيل لك .. وعندما ذهبت الى البيت الذى كان يسكنه الاديب الامريكى همنجواى رافقنى أحد المصورين .. والتقطت ما أردت من الصور . وطبعها وقدمها لى .. فى غاية الدقة والرقة والسرعة ..

واذا كانت هناك ملاحظات سريعة على مدينة هافانا فهى أن المدينة نظيفة جدا .. والمحلات نظيفة .. والبيوت والفلل والقصور والمرافق فى غاية الجمال .. كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الامريكان .. ان هافانا كانت مدينة الملذات .. فكل أمريكى غنى له شقة .. أو قصر .. وليس أسهل من أن يركب طائرته ومعه صديقة أو يتجه الى صديقة .. ويختفى ساعتين أو ثلاثا فى هافانا ثم يعود الى مكتبه فى أمريكا ..

هكذا عاشت هافانا « جرسونيرة » لامريكا .. ويمكن أن يقال كل كوبا ..

فكوبا التى تبيع السكر كأنها مصـابة بمرض السكر ‥ فهى لا تذوقه ‥ محرم عليهـا ‥ فالامريكان يزرعونه ويقلعـونه ويقطعونه ويصنعونه ويصدرونه بالاسعـار التى تعجبهم والشعب الكوبى يتفرج على العلم الحديث الذى يحول القصب الى سكر يذوقه كل الناس الا الذين زرعوه !

والدخان يصنعه الامريكان ويبيعونه فى كل عواصم الدنيا ‥ والبن ‥ والاناناس ‥ وجوزالهند ‥ كل شىء تحتكره أمريكا . والشعب متهدم متململ . . والخونة على رؤوس الحكومات يساومون ويبيعون البلاد ‥ كل هذه الملايين السبعة لا تملك من أمر بلادها شيئا ‥

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية ‥

أما ثورة كاسترو فهى التى أطاحت بالرجعية والاقطاع وبالنفوذ الامريكى فى كوبا . . ولا يزال يهـددها ‥ وبعـد ذلك مؤتمر القارات الثلاث ليس الا اتفاقا دوليا على تصدير الثورات الى الخارج ‥ وما كان يفعله الزعيم جيفـارا ليس الا محاولة لتشجيع الثورات الداخلية على أن يكون لها دور ‥ واذا كانت المخـابرات المركزية الامريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تغتال كاسترو ، فان كوبا ما تزال نموذجا رائعا لصلابة الضعيف صـاحب المبدأ فى مواجهة القوى الغاشم !

وكل شىء حلو فى كوبا ‥ فهى بلاد السـكر ‥ حتى القهوة لا يشربونها سادة ولا سكر شوية ‥ انهم يخلطون البن بالسكر ‥ ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن أطلب فنجان قهوة سادة ‥ هذا غير ممكن ! وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة ‥ والاناناس هنا أجمل من أناناس كثير من البـلاد الآسيوية . . وهنا البابايا التى تشبه الشمام وهى لذيذة الطعم ‥ والفواكه كثيرة سواء على مائدة الطعام أو فى السلال الانيقة التى يضعونها كل يوم فى الغرفة ‥ وهنا يشربون نوعا من « الروم » اسمه الباكاردى ‥ ويقـال أنه أحسن أنواع الخمور فى العالم ‥

والذى عرفنـاه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهـائلة التى بذلها الشعب الكوبى من أجل نجاح هذا المؤتمر ‥ فالشعب لا يجد كل هذا الطعام الذى نجده ‥ انه يضحى به من أجلنا ‥ ولا كل

هذا الارز انه يعطينا ما زاد عن حاجته ·· ولا كل هذه السجائر ·· والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة فى المكسيك ·· ولا زجاجات الكوكا المصنوعة فى أسبانيا ·· ولا الولاعات الصغيرة المصنوعة فى اليابان ·· ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة فى أوربا ·· ان الشعب الكوبى شعب مثالى ·· أراد أن يضرب أحسن الامثلة لأسمى المبادىء : مبادىء حق تقرير الشعوب لمصيرها !

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك . فقد قرأت أن ولايات كوبية تعلن ـ بكل سعادة ـ تنازلها عن نصيبها من الارز لاعضاء الوفود ـ منتهى الايثار والتضحية ! ـ .

وفى مايو سنة ١٩٦١ أعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة وبصورة قاطعة : انه ماركسي لنيني.. وانه وشعبه سيتحملان نتيجة هذا القرار . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع . التى فرضتها امريكا عليه .. والحصار الاقتصادى والسياسى والعسكرى على الجزيرة الكوبية ..

وفى اكتوبر من العام التالى التقطت الطائرات الامريكية صورا لصواريخ سوفيتية فى كوبا .. وأعلن الرئيس جون كينيدى فرض الحصار على كوبا والتفتيش الجوى لكل السفن الداخلة والخارجة منها .. ومنع دخول اى سلاح الى كوبا .. وكانت أزمة عالمية أدت الى أن يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا .. وكان شجاعة من كنيدي أن يهدد .. وكانت حكمة من خروتشيف أن ينسحب.. ولم تقع حرب عالمية ثالثة ..

ولا داعى لان يكون هناك كل هذه الاسلحة فى كوبا .. فأمريكا لا تستطيع ان تهاجمها وأن تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فأمريكا لها مواقع حساسة .. أو اكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة السوفيت فى أوروبا .. وفى آسيا .. وفى البحر الابيض .. ولايمكن أن تغامر أمريكا بغزو كوبا دون أن تتعرض لمواقف أكثر حرجا فى أماكن أخرى من العالم ..

واحساس الكوبيين بأنهم أمريكان لاتين يجعلهم يكرهون انهم أمريكان .. وكلمة امريكى اهانة لا تغتفر .. وأغانيهم الصغيرة الحماسية تردد ذلك .. وتتوعد بذلك .. فهناك أغنية تقول : فيديل .. فيديل .. أكيد سوف يعطيهم علقة ..

فيديل ــ اى فيــديل كاسترو .. واى مواطن ينــادى كاسترو باسمه الصغير ــ اى سوف يعطى الامريكان علقة .. وقد أعطاهم علقة لانظير لها فى التــاريخ .. انه الصغير الذى وضع انف الكبير فى الطين .. وجعله عاجزا عن الانتقام .. وكوبا فى أمريكاتشبهالبانيا فى أوروبا .. واسرائيــل فى الشرق الاوسط انها جميعا ركائز قوية لروسيا والصين وامريكا ..

واذا كان الروس يرقصون التويست ، ويجدون فى ذلك نوعا من المرونة وتوسيع الافق أو نوعا من الاعتــــراف بعالمية الفن » فان الكوبيين لايرقصون التويست .. وانما يرقصون رقصة مشابهة لها تماما اسمها « الموزمبيق » وهذه الرقصة قد ابتدع خطواتها كوبى زنجى اســـمه بابيلو الافريقى .. والكوبيون من أقدر الشعوب الامريكية على الرقص .. ومن أجمل المتع فى الدنيا أن تتفرج عليهم وهم يرقصون رجالا ونساء .. ان الموسيقى هى دمهم .. والرقص هو نشاطهم اليومى .. حتى كاسترو .. فنحن عندما ذهبنا نوقد شعلة التضامن الاسيوى الافريقى . وكان ذلك ليلا .. وكان الجو باردا فى قمة احــد الجبال .. وكان المطر ينزل علينا .. تماسكت الايدى ورحنا نغنى الاناشــيد الكوبية الحماسية البسيطة .. ونرقص رقصة الموزمبيق..كل الشبان والرجال .. وكاسترو.. مشدودا من ذراعيه الاثنين .. يرقص .. ويغنى .. ويظل فىنفس الوقت زعيما وشابا ثائرا .. اذا خطب اهتزت له الملايين .. وهو لايخطب الا أربع ساعات واحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق وقوفا .. وكنا نستمع الى خطبه من راديوهات تترجم كلماته الى ثلاث لغات من بينها اللغة العربية .

وكاســترو رجـــل بسيط .. فى مظهره .. انه يرتدى الملابس العسكرية الخشنة .. والحذاء الخشن .. ويحمل سلاحه .. ولا يكف عن تدخين السجار الكبير .. وهو ككل لاتينى يحب الخمر .. ويدعو اليها كل صديق .. واى انسان هو صديق له وبسرعة .. ومن الطبيعى أن يكون معبودا للشباب .. وهو أيضــا يحب الشباب أن يلتف حوله .. ولا عدد للفتيات الصغيرات اللاتى يدرن فى فلك كاسترو .. وهو رجل أعزب بعد أن هجرته زوجته الى امريكا مع عشيق امريكى .. ومن المؤكد أن هذه الاهانة التى لحقته شخصيا أعمق اثرا من انتصاره الهائل على امريكا .. انه أنتصر على امريكا هذا واضح ، ولكن انتصار شـــخص أمريكى واحـــد عليه قد أوجعه أكثر . !

وقد هربت أخته أيضا الى امريكا .. انها لاتريد مايريد .. ولا يهمها ما يهمه .. انه قائد وهى فتاة عادية..هو رجل غير عادى.. رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية ، وهى فتاة تريد أن تعيش بلا تاريخ ولا لقب .. ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها الا لانها أخت كاسترو !..

والكوبيون هنا خليط من الاسبان ومن الزنوج الافريقيين الذين أتى بهم الاسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا يزرع الارض .. واختلط البيض بالسود .. ولذلك نجد فى كوبا اناسا بيضا وسمرا وزنوجا .. ولا توجد أية تفرقة لونية عندهم .. والتزاوج ممكن بين هذه الالوان .. أو يحاولون أن يجعلوه ممكنا الى أقصى حد ..

وعندما كنا نذهب الى بيوت الزنوج الفقراء .. ونناقشهم وهم يتفرجون علينا فنقول لهم : نحن افريقيون ..

كانت ملامحهم ترفض ذلك .. فهم سود ونحن بيض .. فالافريقى عندهم هو الزنجى..هو سجين اللون .. امانحن فأفريقيون جغرافيا فقط .. وكنا نقدرهم . فلا تزال حجتهم أقوى .. هم افريقيون حقيقة ، ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الافريقية.ولايمكن أن يشعر الابيض بعذاب الأسود الذى يرزح تحت فك بارزو شعر مجعد وبشرة فى لون الظلام وقضبان السجون !

ولا أعتقد.انى رأيت فى حياتى يوما أجمل ولا أروع ولا أبسط من يوم الثورة الكوبية .. كان ذلك يوم راس السنة . ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية فى ميدان كبير .. الانوار والموسيقى .. والموائد ممدودة .. وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل أنواع السجائر وعلى مدى منضدتين منا يجلس كاسترو .. وبعينه الضيقة ذات الاحمرار الحقيقى لمح الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب تغييرها الى شمبانيا .. وشرب فى صحة كل الشعوب .. والتضامن والشعب الكوبى .. أما الشعب الكوبى فقد افترش الميدان .. ففى الميدان موائد ومقاعد .. وطعام وزجاجات البيرة لاعدد لها .. وسندوتشات اللحوم .. والفاكهة .. مئات الالوف من الناس .. يأكلون ويضحكون .. وأهم من ذلك يرقصون ..

لقد رأيت عيد الثورة الفرنسية فى باريس مرتين . . ومشيت فى الشوارع ازاحم الناس .. ودخلت الى المقاهى أزاحم الناس .. واتجهت الى الميادين أفسح لى مكانا .. وضحكت .. ورقصت ..

وملأت نفسي بسعادة الفرحة بالحرية .. وتفاديت أن أدوس السكارى على الارض .. وحرصت على الا ألقى بنفسي بين اثنين يتعانقان .. والا أدق بابا غير بابى وأن أضع المخدات فوق رأسى عندما أعود الى فراشي حتى أخطف ساعة من النوم وسط الصرخات والقبلات والعبارات المخمورة فى الغرف المجاورة وعلى السلالم وفى الاسانسير .. وتصورت يوم كنت فى باريس أنه ليس أروع من ١٤ يوليو فى باريس .. ولكن فى هافانا كان أروع وأبسط وأجمل .. انت مع كل الناس .. لاأحد يعرفك ولا انت تعرف احدا .. ولكن مد يدك الى أى انسان تعود يده معك .. مد ذراعيك ويمتلىء حضنك .. بلل شفتيك والقبلات تطير من كل مكان .. انت واحد من مليون .. والفرحة تتوزع بالعدل بين الناس ..

وليلة اخرى فى مدينة سان فويجو فى مقاطعة اورينت فى كوبا أيضا .. فى تلك الليلة اقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية .. يمكنك أن تقول ان الكوبيين ولدوا ليرقصوا .. أو يرقصون منذ ولدوا .. انهم فى غاية الرشاقة والسيولة والليونة .. هذه هى رقصة الموزمبيق .. لم أتعلمها من أحد .. ولكن المترجم الذى اسمه : هورهه — اى جورج فهم ينطقون الجيم هاء — يهتز فى مكانه وبسهولة وفى جمال .. سحبنى .. انسحبت .. هزنى اهتززت تركني كلعبة لها زمبلك وظللت أرقص حتى نبهنى الى ان الرقصة تغيرت وانه من الضرورى أن أغير .. تماما كأنى اسطوانة انتهت ويجب ادارتها على الوجه الآخر .. واهتز أمامى واهتززت امامه .. وتدخل بيننا عدد من الفتيات .. وليس من الضرورى أن ترقص اذا كانت التى تقف امامك أو وراءك فتاة .. دعها هى ترقص وتظاهر انت بالاعجاب بها والفرجة عليها .. وسوف يعذرك الناس لان هذه أعظم تحية واكبر عذر يقبله اللاتين هنا . ان تعجب بفتاة .. وان تذهب فى اعجابك بها الى الخروج على التقاليد وعلى الذوق !

فمن مئات السنين فعل أمير العشاق ذلك .. فدون جوان ألقى على نفسه جردلا من الماء القذر لكى يضحك معشوقته .. ولما ضحكت .. رفض أن يغسل وجهه .. ولم يعتذر عن هذا الماء الذى اصاب فى نفس الوقت والديها .. انه مشغول بها فقط .. وهذه أعظم تحية !

والاديب العاشق كازانوفا عندما ذهب الى لقاء محبوبته فى بيتها وجدها مريضة . . ولما سألها عن السبب قالت : أكلت طعاما فاسدا ..

فانطلق الى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد .. ليذوقه ويمرض الى جوارها .. ولم يجد الطعام .. فامتنع عن الطعام حتى مرض . وجاءت لزيارته .. ولم يكد يراها حتى قفز من سريره دفعة واحدة وكأنه عفريت خرج من قمقم .. وانهال على يديها يقبلها .. وعندما نظر الى الارض ليعرف ما هذا الشيء الذى يلمع .. لم ينتبه الى أن هذا الذى سحقه بقدمه كان منظار الطبيب الذى سقط على الارض وزجاجات الدواء فى يديه والمنظار تحت أقدام الجميع .. ولم يعتذر كازانوفا .. فأمام المعشوقة لا عذر ولا اعتذار .. ويكفى ان تكون هناك ليصبح كل شيء جائزا ..

وتصورت فى لحظة اننى اتفلسف وان الافكار التى تتوارد على رأسى هى انطلاقات شاعرية .. ولكن عندما نظرت الى جوارى وجدت عجوزا بساق واحدة .. وقد أصرت على أن ترقص .. واختارت شابا صغيرا .. وكانت أروع وأسرع منه فى الرقص .. ولما اندهشنا لذلك .. قالت العجوز : اننى قد تصلبت ويبست فى أماكن كثيرة من نفسى وجسمى .. ولم يبق لى الا الرقص .. !

وسألتنى . هل ترقص ؟

قلت : ليتنى أستطيع .. ان الرقص معك يؤكد عجزى الذى لا حدود له ..

قالت : الشاب هو الذى يرقص .. عندما كنت شابة كنت أرقص طول الليل .. وقد استطعت فى ليلة ان أدوخ عشرة من الشبان .. هم تعبوا وأنا لم أتعب ..

قلت : وتستطيعين الليلة ايضا !

وضحكت .. وكانت ضحكتها سعيدة .. وسعادتها تدل على ان المرأة لاتشبع من المديح ..

وقال لى أحد خبراء الرقص الكوبيين .. انه ليس من الضرورى أن تكون استاذا فى الرقص .. المهم ان تتحرك فقط .. اعط اذنك للموسيقى .. والصوت يقوم بكل العمل فى جسمك ..

وأدرت هذه العبارة فى أذنى على كل الاشكال الادبية والسياسية والموسيقية : اعط اذنك .. واترك الصوت يقوم بكل العمل !.

واعطيت أذنى للموسيقى الصارخة .. والطبـــول المدوية .. واعطيت عينى للالوان .. امواج من الالوان .. واعطيت أنفى . . لا اظن اننى أعطيت أنفى .. فقد فقدته تماما .. فأنا مصـــاب بزكام شديد .. واعطيت ذراعى واصابعى لكل ماحولى .. فأنا احرك المقاعد وأتساند على الحواجز الخشبية .. واعطيت فمى لكل الفواكه .. فأنا مبذول لكل هذه الفيضانات من المشاعر .. انها تهزنى .. وتهدئنى .. وتغسلنى وتعصرنى وتنشرنى وتجففنى لتكون نفسى أكثر بياضا ..

لقد تركت الاصوات والالوان تقوم بكل العمل ..
وعرفت النوم العميق .. واليقظة النظيفة ..
وسألت احدى المرافقات لنا : انت مخطوبة
فقالت : نعم .
قلت : لمن ؟
قالت : لموظف فى وزارة الداخلية ..
قلت : ومتى تتزوجين ؟
قالت : قريبا
قلت : هل هناك صعوبات ؟
قالت : يعنى .
قلت : افهم معنى كلمة يعنى هذه .. لانها من الكلمات القليلة التى تضايقنى .. لان معناها ان هناك صعوبات ولا داعى لذكرها .. أو لاداعى لان تعرفها .. أو ماشأنك انت يا بارد ..

قالت : كل هذا الذى قلت ..
قلت : تقصدين انه لاداعى لان اسألك .
قالت : لا .. اسأل .. وأنا من الواجب أن أجيب ..

ولم اسأل طبعا .. فقد سدت فمى عبارة «من الواجب أن أجيب» ـ احسست فجأة انها موظفة تقوم بمهمة .. وانها مطالبة بأن تكون لطيفة وظريفة .. والا تدلى بكثير من المعلومات .. أو بعض المعلومات فكوبا دولة حساسة .. وتتوقع أن يكون أى انسان عدوا لها .. مع أن الذى كنت اريد أن أعرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية وكيف تغيرت .. وكيف أقابل بعض المسئولين عن تطوير الاسرة ..

وكيف انتقلت كوبا من الانحلال الى التحرر .. أو كيف انتقلت من التحرر الامريكي الى التحرر الكوبي أيضـــا . . وأين ذهبت هذه الالوف من بنات الليل .. وما الذى يفعله الكوبيون أنفسهم فى هذه الكباريهات الكثيرة جدا الموجودة فى هافانا واريد ان اعرف منها متى بدأت تجربة الفتيات اللاتى يقمن بتنظيم المرور فىالشوارع .. انها كانت واحدة منهن .. ولكن لما سمعتها تقول : « انه من الواجب أن تجيب .. » أحسست ان هذه الاسئلة الشخصية فوق الواجب، وانها اذا كانت قد راعت الذوق فى كل تصرفاتها ، فلمــاذا لا أفعل ذلك ؟ وفعلت ذلك وسكت ..

واتجهت الى بائعة سجائر .. وما أكثر السجائر وعلب الكبريت هنا .. ان أكثر أعضـــاء الوفود الذين غيروا عملاتهم فى الســـوق السوداء قد عادوا بألوف من علب السجاير الفخمة وعلب كبريت الشمع .. وسألتها :

ـ طبعا من أصل اسبانى ؟

فقالت : هه ـ أى نعم ـ وأنت ؟؟

قلت : مصرى .. افريقى ..

قالت : هه ـ ومعناها : ياه

قلت : لا تصدقين ؟

قالت : هه ـ ومعناها : العب غيرها !

قلت : احلف لك ..

قالت : هه ـ ومعناها : على ماما ؟

قلت : أريد كتابا فى اللغة الاسبانية ..

قلت : هه (مع هزة من كتفها ناحية اليسار .. الذى تصـــادف انه ناحيـــة الباب الخارجى ولم يكن قصدها أن أخرج بسرعة) ـ ومعناها : لايوجد

وذهبت الى المترجمة ورويت لها ماحدث .. وسألتنى عن الفتاة وعن أوصافها .. ولما عرفت ضحكت جدا وقالت : انها ملكة جمال هافانا .. وهى تتصور أنها أجمل واحدة فى كوبا وفى امريكا .. وان اى انسان يتحدث اليها فهو يعاكسها فقط .. وان كلمة « هه » من أهم الكلمات التي تستخدمها وهى معروفة بذلك ويسمونها هنا سينوريتا « هه » ؟ ! ..

وسألتني : ما الذى كنت تريده منها ؟
قلت : كتابا فى تعلم الاسبانية ..
قالت : هه .. ــ ولم أعرف معنى هذه الكلمة ..
قلت : ماذا تقصدين ؟
قالت : هه ــ اى هذه حيلة .
قلت : والله ابدا حتى اسألى فلانا واشرت الى أحد الزملاء ..

وضحكنا . . واندهشت جدا كيف اننى وحدى الذى كنت أبحث عن كتاب وكل هؤلاء الخبثــــاء قد عرفوا بسرعة انها ملكة جمال وذهبوا يداعبونها ..

وقلت للمترجمة : ولكننى لا أراها جميلة ..
قالت : هه ومعناها : اطلع من دول ..
قلت : اقسم لك انها ليست جميلة .
قالت : اسمع !

وسمعت منها ماليس غريبا على عقلى .. فمن المألوف أن يذهب الناس فى معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويغيظونها ويؤكدون لها انها لاجميلة ولا حاجة .. وهى محــاولة لهز ثمار الشجرة .. أو لزعزعة ايمانها بنفســـها .. فقــد تحب المرأة من يكرهها .. أو من يعذبها أو من يحتقرها .. أو من يزهد فيها .. أو تطارد من يهرب منها .. تماما كما تهرب ممن يطاردها ..

ولم يكن هناك مجال لكلام .. فأنا زائر عابر وانا عندى مايشغلنى وهو كثير .. وانا عضو فى اكثر من لجنة .. وعندنا تقارير وكتب .. وعندنا لقاءات مع أدباء واساتذة جامعة .. وأعضاء الوفود .. وعندى موعد آخر مع البرتو مورافيا .. الذى تتأكد صداقتى له فى كل مرة ألتقى به .. فى ايطاليـــا وفى القاهرة وفى المانيا .. وهنـــا فى كوبا ..

سألته : ما رأيك فى كوبا ؟
قال : تجربة رائعة ..

قلت : هل تكتب عنها ؟ . .

قال : اعتقد ذلك . .

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون دى بوفوار ؟

قال : انه يكتب كثيرا . .

قلت : وفرانسواز ساجان أيضا ؟

قال : واعجبك ما كتبته .

قلت : لم يعجبنى من كل ماكتبتـــه غير كتـابها الاول : مرحبا أيها الحزن . .

قال : وانت أيضا رأيك فيها هكذا . . ان زوجتى من رأيك . . اسألها . .

قلت لها : لم يعجبك من مؤلفات ساجان سوى قصتها الاولى . .

قالت : نصف هذه القصة . . .وهى لم تضف جديدا لا فى النصف الثانى . . ولا فى بقية القصص الاخرى . .

***

ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذى كان مرهقـــا للاعصـــاب لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحادة حول الزعامة وعلى مكان مركزه الدائم . . وموقف الوفد الصينى . . والوفدالسوفيتى . . والوفود الافريقية . . ففى داخل اللجان كانت الترجمة فورية والى لغـات أوربية متعـــددة . . والى اللغة العربية أيضـــا . . فمثلا أصر مندوب اليمن أن يلقى قصيدة طويلة . . وهذاالشاعر أبيض الوجه أخضر العينين قصـــير القامة . . وذهب الى المنصة واخرج شريطا طويلا من الورق وراح يلقى قصيـــدته . . وامســك الحاضرون السماعات التى يستمعون منها الى الترجمة . . وراحوا يحركونها يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم . . واشتركوا فى ابتسامة غامضة . . ثم فى ضحكة عالية . . وراحوا يسألوننا عن هذا الذى يجرى امامهم ولا يفهمونه . ونحن لانجد مانقوله ؟ انه يلقى قصيدة . . ولا يمكن ترجمتها الى أية لغة . . لانها كلام فارغ أولا . . ولانها تتـــلاعب بالالفاظ . . ومن أهم العابها اللفظيـــة كلمة : كوبا . . فالقصيـــدة تقول : جئنا الى كوبا . . ولم نشرب كوبا من المـــاء ، وانما شربنا

اكوابا من الكرم والضيافة .. الى آخر مثل هذا الكلام البايخ الذى لايمكن ترجمته ولا داعى لذلك !

ولكن الناس يريدون أن يعرفوا .. ولم يعرفوا لان أحدا لم يقل لهم شيئا .. وكل ماقيل لهم : انه من اليمن ..

آه من اليمن .. آه كده .. — وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا .. أو مبررا لعدم الرد !

وكان الوفد الصينى عصبيا جدا .. وكان عدده كبيرا .. ولم أفهم فى كل ماقرأت أو سمعت سببا لهـذه العصبية .. وربما كان السبب هو ان الصينيين اذا رأوا الروس احترقت أعصابهم .. وكان الروس هناك دائما وفى منتهى النشاط ..

واذكر — مرة واحدة — اننى لقيت أحد أعضاء الوفد الصينى وحييته أو حيانى ولم نقل شيئا . وضحك هو ولم يقل شيئا .. وعاتبنى أحد الزملاء : كيف تفعل ذلك .

قلت : وماذا فعلت ؟

قال : ألم تسمع ما الذى قاله هذا الرجل فى جلسة الصباح .

قلت : لم أسمع ..

قال : لقد لعن المؤتمر من أوله لآخره ..

قلت : اننى لا أراه قد لعننى بصفة خاصة .. ومع ذلك فما الذى قلته له .. أو قاله لى .. لقد حيانى فى صمت .. وحييته فى صمت أكثر .. هو ضحك وهز رأسه .. وأنا لاضحكت ولا هززت رأسى

قال : لكن كان عندك استعداد انك تكلمه ..

قلت : ولا يزال عندى استعداد لان أتكلم مع أى أحد من كل الذين تراهم امامك ..

قال : يا عم أنا ماليش دعوة .

قلت : هه — محاولا أن أقلد الفتاة الكوبية بائعة السجائر ..

هه .. وانصرفنا .. كلّ الى حال سبيله .. ولم يكن لنا سبيل الا حول الفنـدق وفى المحلات الصينية التى تبيع الاحجار الكريمة وبأسـعار معتدلة .. خصـوصا حجر التراكواز وحجر الجـاد الغالى الثمن ..

وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة الى كوبا .. من الغرب الى الشرق .. وفى النفس تلك الصورة الجميلة العميقة .. وفى الفم طعم جوز الهند الذى شربناه .. والاناناس الذى التهمناه .. والسجائر التى تعلمت من كاسترو ان اضعها فى فنجان القهوة الى ان يلين احد طرفيها ثم نكسره بأسناننا .. وقد امتلأت الحقائب بالكتب والمجلات وعلب الكبريت وعلب السجائر وبالعقود والخواتم الصينية والاقمشة الحريرية .. ولا اظن اننى رأيت القباقيب فى كوبا .. ولكن وجدت ستة ازواج منها فى حقيبة صديق سعودى كان ضمن المؤتمر .. وربما كانت هذه اول صورة للاحذية التى لبسها الاسبان عندما اكتشفوا كوبا .. بعد ان اهتدى اليها البحار الايطالى كولمبوس .. ولم استرح لوجود هذه القباقيب فى الطائرة الا عندما تركها الزميل السعودى فى غرفته فى فندق أوكرانيا بموسكو ونحن فى طريق العودة الى القاهرة ..

وفى غرفتى فى فنـــدق أوكرانيا امسكت قلمـــا وورقة وكتبت : « عزيزى الرئيس كاسترو » ..

انها بداية تقليدية سخيفة ..

أفضل منها : عزيزى فيديل كاسترو ..

أو لاداعى لكلمة كاسترو هذه .. انهم ينادونه بكلمة فيديل ..

اذن أقول : عزيزى فيديل .. تذكر يوم رأس السنة يوم عيد ثورتك الشابة المجيدة ونحن نأكل معا .. ونستعير الكثير من سعادتك ونحن نتحدث عن كوبا. هل تذكر انك قدمت لى سيجارا كبيرا جدا .. اكبر من سيجار تشرشل .. انه سيجار كاسترو .. والقيت بما معى من سيجار فى الارض ــ احتقارا لشأنها .. وقلت لى بالحرف الواحد : مادمت مع كاسترو فاشرب هذا السيجار ..

واعطيتنى سيجارا ضخما .

وقلت لك : واذا لم أكن مع كاسترو ..

فقلت انت : يبعث لك كاسترو بالسجائر ..

وقلت أنا : واذا لم يبعث كاسترو ..

وقلت انت : يبعث لك كاسترو بأن تجيء لتدخن هذا السيجار معه ..

قلت أنا : هذا أفضل ..

ومددت يدك وصافحتني .. وكانت هذه المصافحة تعاقدا واتفاقا بيننا ..

والآن يا أيها العزيز فيديل : انا في شوق الى سيجارتك .. فما رأيك ؟ .. »

ومزقت الخطاب لان المعنى لايعجبني .. ولا يريحني .. ويكفي انني رأيت وسمعت وقرأت واستمتعت واحتفظت بذكريات جميلة حارة ، لبلاد جميلة وشعب حار .. وليس السيجار وقصب السكر والاناناس الا أهون مافيها ..



فهــرس الــكتاب

اشتراكات كتاب اليوم

البريد العادى :

	مليم ج	
المجموعة الاولى :	۱٫۰۰۰	ج٠ع٠م ٠ واتحاد البريد العربى
المجموعة الثانية :	١٫٥٠٠	باقى دول العالم

البريد الجوى :

	مليم ج	
المجموعة الاولى :	١٫٢٥٠	(سوريا ــ لبنان ــ الاردن)
المجموعة الثانية :	١٫٥٠٠	(دول اتحاد البريد العربى)
المجموعة الثالثة :	٣٫٠٠٠	(دول أوربا)
المجموعة الرابعة :	٥٫٥٠٠	(أمريكا الشمالية ــ الهند ــ دول جنوب افريقيا)
المجموعةالخامسة :	٦٫٥٠٠	(أمريكا الجنوبية ــ اليابان)


كتاب اليوم

هذا الكتاب

بلاد الله
خلق الله

بقلم انيس منصور

اللهم اجعلنى فراشة فى كل حديقة ..

حوتا فى كل محيط ..

أسدا فى كل غابة ..

واجعل لى مقعدا فى كل طائرة بين قارة وقارة .. وفى كل صاروخ بين الارض والقمر ..

وحتى عندما أبقى فى مكانى فان عقلى يدور فى رأسى ، ورأسى يدور حولى ، وجسمى يدوخ بين الاجسام ..

وحتى عندما أكون وحدى فاننى مسافر دائما بين كتب الرحلات والمغامرات الفكرية والثورات العاطفية .. بين المحبين والشهداء .. فانا لا اقوى على ان أكون فى مكان واحد .. ولا استطيع ان أقف عند كلمة واحدة فى سطر واحد .. ولا عند سطر واحد فى كتاب .. ولا عند كتاب لمؤلف واحد فى عصر واحد ..

فانا المسافر بلا

وانا الحقائب بلا مس

وانا المسافر بلا

اننى المسافر دائما

والاشخاص والعصو

أو أتمنى ان اكون

آمين .

انيس م

الثمن ١٠ قروش